

اقراء

أحمد السنناري

السَّيُّورُ بِالْفَيْدِ

قديماً وحديثاً

التَّائِبُونَ بِالْغَيْبِ

قَدِيمًا وَجَدِيدًا

اهداءات ٢٠٠٢

المهندس/محمد إبراهيم شهابي

الاستاذية

أحمد السنناری

السنن بالقیب

قدیمًا و جدیدًا

۲۰۱ اقرا

دارالمعارف بمصدر

إقرأ ٢٠١ - سبتمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسبيرو - القاهرة

الفصل الأول

ما هو التنبؤ بالغيب

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ » .

والغيب هو ما لا نعلمه في إدراكه على إحدى الحواس
فلا يدخل في دائرته استنباط النتائج من مقدماتها ومعرفة
السيئات من أسبابها بطريق الاستدلال ، وقياس ما غاب بما حضر ،
كعلمنا شفاء المريض قبل حصوله إذا وجدنا العلاج ناجحاً ،
وكثرة ثمار الأرض إذا رأينا النبات نامياً ، وسقوط أمة إذا
ألفينا أبناءها متفرقي القلوب منغمسين في اللهو والترف منصرفين
عن الجهد والعمل . كل ذلك وما أشبهه خارج عن دائرة علم
الغيب أو التنبؤ بالغيب الذي هو موضوع هذا الكتيب .
والإنسان مولع منذ أن وجد على ظهر الأرض إلى اكتشاف
الغيب ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث . وقد ظهر من بني
البشر في كل عصر من العصور أناس ادعوا أن لهم القدرة على
التنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل ، وقد خلعت عليهم هذه القدرة

مهابة واحتراماً وتبجيلاً بين الناس، بل لقد أدنتهم هذه المقدرة من مراتب الأنبياء وسلكتهم في عداد أولياء الله الصالحين .

ولم يقف هذا الميل أو الادعاء بالمقدرة على كشف الغيب عند حد الأفراد بل تعداهم إلى الأمم والشعوب؛ فقد بدأ برع الآشوريون في التنبؤ بالغيب وذلك عن طريق ملاحظة الكواكب والأجرام السماوية في مسالكها وقد مكنتهم سماؤهم الصافية من مراقبة حركاتها وقالوا إن لهذه الحركات دلالات على حظوظ الناس ومصائرهم . وقد أخذ الكلدانيون هذا العلم عنهم وواصلوا قراءة صفحة السماء ومشاهدة النجوم في تحركاتها وأقاموا على ذلك كله علماً يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس ومعرفة المصير الذي قدر لهم . ولقد كان للمصريين القدماء نصيب وافر من هذا العلم ورثوه عن أسلافهم خلال ماضٍ سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

أما الإغريق فكانوا لا يقدمون على أمر من الأمور إلا بعد التماس النصيحة من الآلهة واستشارة الكهنة الذين كانوا يدعون التنبؤ بالغيب . وكان علم الكهانة شائعاً عند العرب أيام الجاهلية إذ كانوا يطلقون لفظة كاهن على كبل من ادعى علم الغيب، أو تنبأ بشيء قبل وقوعه . وقد نبغ فيهم كثيرون من الكهان مثل

شق بن أنمار، وسطيح بن مازن، وطريقة الكاهنة، وزيراء الكاهنة وغيرهم .

وقد ورد في الكتاب المقدس الشيء الكثير من التنبؤات على ألسنة بعض الأنبياء من أمثال إرميا وحزقييل . وقام نفر من العلماء يدرسونه هم بلخيزة الأكبر من حيث دلالاته على بعض التنبؤات ويؤكدون بالأدلة الحسائية الملموسة أن بعضها قد تحقق في العصر الحاضر .

وكان التنبؤ بالغيب من الأمور الشائعة في العصور الوسطى وظهر في تلك العصور عرافون كثيرون تنبأوا بأمور كثيرة تحقق الكثير منها ، ولعل أشهر هؤلاء العرافين هو نستراداموس Nostradamus أحد علماء العصور الوسطى ، وقد عاش في القرن السادس عشر وكانت له تنبؤات كثيرة تحقق منها الجزء الأكبر . وقد شابت تنبؤاته الشيء الكثير من الغموض بسبب التواء أسلوبها ، فقد كتب هذا العالم تنبؤاته في شكل أشعار ومزية لها دلالاتها الخاصة نذكر منها على سبيل المثال النبوة التالية :

« سوف يغلب الأسد الصغير الأسد الكبير في ساحة التزال بعد مباراة واحدة . سوف يطعن ناظره الموضوعين في قفص من ذهب ، وبعدها يموت الأسد الكبير ميتة شنيعة » .

كان نستراداموس هذا معاصراً للملك هنري الثاني ملك فرنسا . وفي يولييه من عام ١٥٥٩ احتفل الملك هنري بزواج أخته مرجريت من دوق ساثوي . وكان من بين برنامج الاحتفال إقامة مسابقة بالطعن بالرماح . وكان هنري ماهراً في اللعب بالرمح لذلك دعا أحد ضيوفه من الشبان وهو إيرل مونتجومري من الحرس الاسكتلندي لمتنازله بالرماح . وقد اعتذر هذا الشاب عن هذا الشرف المحوط بالأخطار ولكن الملك أصر على ذلك . وفي خلال النزال اخترق رمح مونتجومري خوذة خصمه للذهبية ودخل الرمح في عين الملك الهني . وقد مات الملك هنري الثاني بعد ذلك ميتة شنيعة مؤلمة .

وتنبأ وليم ليلي William Lilly المنجم الإنجليزي في عام ١٦٥١ بالطاعون الذي اجتاح مدينة لندن عام ١٦٦٥ وبالحريق الذي دمرها عام ١٦٦٦ .

وكان تنبؤه من الدقة بحيث أنه تألفت بعد حريق لندن لجنة برلمانية لسؤال ليلي هذا عما إذا كان تنبؤه هذا مستمداً من معلومات أخرى غير ما أنبأته به النجوم والكواكب وذلك خشية أن يكون ذلك الحريق قد شب نتيجة مؤامرة من المؤامرات .

وير Peare متنبئ إنجليزي آخر تنبأ في عام ١٨٦٨ بأن

الملك جورج — وكان في ذلك الوقت في الثانية من عمره ، وله من الإخوة ما يكبرونه سنّاً — سوف يصبح ملكاً لإنجلترا تحت اسم جورج الخامس ، وقد تحققت هذه النبوءة .

وتنبأ أحد الإنجليز في عام ١٨٨٦ بأن عام ١٩١٧ سوف يكون على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لإسرائيل وبريطانيا . والمعروف أن اللورد اللنبي قد دخل فلسطين عام ١٩١٧ واستولى على القدس وأصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد أن ظلت تحت الحكم الإسلامي طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان وقد مهد ذلك لظهور دولة إسرائيل الحديثة .

وقد ظهرت قبل عام ١٩١٤ نبوءات كثيرة عن الأحداث الجسام التي حلت بأوروبا. فيما بين عامي ١٩١٤ و ١٩٢٠ وهي الفترة التي نشبت فيها الحرب العالمية الأولى . فقد تنبأ العراف ويتزر Weitzer في أوائل القرن الحالي بأن السنوات الإحدى عشر من ١٩٠٩ إلى ١٩٢٠ سوف تكون ذات شأن خطير بالنسبة للقارة الأوروبية ، كما تنبأ معظم العرافين والمنجمين ببلون استثناء بحرب ضروس تشنها ألمانيا خلال الأعوام من ١٩١٣ إلى ١٩١٦ . وفي عام ١٩٠٥ أي قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات تقريباً نشرت مدام تيبس Thebes اله افة الفرنسية المشهورة هذه

الكلمات في التقويم السنوي الفرنسي :

« إن مستقبل بلجيكا محزن مظلم . إن هذه الدولة الصغيرة توحى بالرفاهية والسلام ولكنى أكرر كلماتي السابقة ، أن هذه البلاد سوف تشعل النيران في أوروبا بأسرها » .

ونحن نذكر جميعاً كيف أغارت ألمانيا على بلجيكا في الحرب العالمية الأولى على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء التي كانت معقودة بينها وبين تلك الدولة، الأمر الذي أدى إلى نعت هذه المعاهدة بأنها « قصاصة ورق » وكان ذلك هو السبب الذي دفع إنجلترا إلى دخول الحرب العالمية الأولى .

وذكرت مدام تيبس في طبعة سنة ١٩١٣ من ذلك التقويم ذاته ما يلي :

« إنى أرى بين أيدي كبار الإيطاليين دلائل تدل على حرب ضروس لم يحدث لها شبيه من قبل . إن ألمانيا تهدد أوروبا كلها بوجه عام وفرنسا بوجه خاص، ولكن الحرب إذا وقعت فسوف لا تحتفظ ألمانيا بعدها بمركزها الرفيع . وقد سبق أن أكدت مراراً أن أيام القيصر أصبحت معلومات، وسوف تحدث بعده تغيرات هائلة في ألمانيا » .

وقد تنبأ بعض العرافين بموت اللورد كتشنر غرقاً وهو في

السادسة والستين من عمره ، وأن مارك توين الروائي المشهور سوف يصبح ثرياً في أواخر أيامه أى بعد الثامنة والستين من عمره ، وهي كلها أمور تحققت عن آخرها فيما بعد .

ومحمل القول إن التنبؤات موجودة منذ أن وجد الإنسان . ونحن اليوم نسخر من النبوءات التي يطالعنا بها من حين لآخر بعض العرافين والمنجمين وإن كان الكثيرون منا يعتقدون فيها وإن لم يفصحوا عن هذا الاعتقاد خوفاً من أن يرميهم الناس بالسذاجة أو التأخر العقلي . وليس هذا بجديد فقد وجد على الدوام في كل عصر من العصور أناس سخرُوا من هذه النبوءات وآخرون اعتقلوا فيها . ولعل مرد هذا أنه لم يوجد قط عراف أو منجم صدق كل الصدق فيما تنبأ به . كما نجد إلى جانب ذلك عرافين تنبأوا بأشياء لا يميل الناس عادة إلى تصديقها كهؤلاء الذين يتنبأون من وقت لآخر بقرب فناء العالم فكان مصيرهم السخرية والمقت ، بل إن بعض العرافين قد تنبأوا في العهد القديم بفناء أو زوال قارة الأطلانتس (القارة المفقودة) فكان مصيرهم القتل .

والإنسان بطبعه ميال إلى الشك بل إن الشك عنصر من عناصر حياته العقلية ، وما زاد من شكه في هذه النبوءات ظهور

بعض العرافين تنبأوا بنبوءات كاذبة لم يتحقق منها شيء، على أن هذه النبوءات الكاذبة لا يجب أن تقلل من قيمة النبوءات على الإطلاق، أو تكون مطعناً في فن الكهانة، فما من فن إلا وكان حارس أهله عرضة للكذب . فإذا أخطأ الطبيب في حكمه فإن ذلك لا يطعن في فن الطب ولا يمكن كذلك أن نقول إن الملاحاة ليست فناً لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه، وهل يفقد الفن العسكري قيمته لأن قائداً طائر الصيت قد حلت به الخزيمة وفقد جيشه وولى الأدبار ؟

لقد ذكر العرافون كثيراً من النبوءات الصادقة، وتحفظ لنا كتب التاريخ الكثير من هذه النبوءات الصادقة التي تحققت عن آخرها وهذا يدعونا إلى التساؤل : من هو العراف ؟ هناك تعريف حديث يقول إن العراف هو شخص بعيد النظر الروحي فكما أن هناك في العالم الطبيعي قصر نظر وبعد نظر فكذلك هناك بعد نظر روحي .

ويمكن أن نعرف التنبؤ بالاختصار بأنه قوة تمكن صاحبها من رؤية الأشياء والحوادث غير المنظورة، سواء في الزمان أو في المكان . والنبوءة لا تنفد عادة قائلها بشيء من الأشياء، بل كثيراً

ما أدت بعض النبوءات إلى استشهاد من قالوا بها .
 ومما هو جدير بالذكر أن علماء البحوث الروحية، وكثيراً
 من علماء النفس يعتقدون اليوم في تبادل الشعور والخواطر مع
 الغير وهو ما يعرف عندهم باسم « تلباثى » Telepathy ويرون في
 التنبؤ بالحوادث المستقبلية حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وإن لم
 يجدوا لها تفسيراً تطمئن إليه النفس . وليس هذا مقصوراً على
 تبادل الشعور والخواطر والتنبؤ بالأحداث المستقبلية، بل هناك
 أيضاً حقائق علمية كثيرة لا نجد لها تفسيراً، أو أنها لم تفسر بعد
 التفسير الكافى المقنع .

إن كل ما نتمتع به اليوم من وسائل الراحة والرفاهية إنما هو
 ثمار آراء بدت في أول أمرها غريبة مستنكرة ، وكم سفهت
 واستهزئ بأصحابها ورموا بالجنون وفساد الرأى فيما يذهبون، ولكن ما
 لبث ما كان بالأمس مزاعم باطلة أن صار اليوم حقائق ثابتة
 ذات ثمار يانعة فيها منافع للناس .

نحن لا نعرف اليوم على سبيل المثال ما هى الكهرباء وأن
 كل ما نعرفه عنها هو آثارها التى نشاهدها ، وكذلك الحال
 بالنسبة للأشعة الكونية أو القوة التى تتحكم فى الذرة وغير ذلك
 من الظواهر الكونية . لقدى مضى الوقت الذى كانت تعتبر فيه

هذه الأشياء التي لا نجد لها تفسيراً من خوارق الطبيعة ، ولكننا لانميل اليوم إلى نعتها بأنها من خوارق الطبيعة ، ولكنها أشياء طبيعية لم تفسر بعد .

إن من مظاهر تفكيرنا تلك الظاهرة التي نطلق عليها لفظ « المحال » فنحن نعرف أنه منذ أكثر من قرن من الزمان كانت بعض الأشياء المألوفة لنا اليوم تعد من الأمور المستحيلة . ألم تكن مبادئ نظريات الطيران والغواصات والراديو والتليفزيون آراء غريبة طالما سخر الناس من القائلين بها ، محتجين إذ ذاك بأن تحقيق تلك الآراء مما يتنافى وسنن الكون وقوانينه الطبيعية .

فنحن نعرف أن المهندسين منذ أكثر من قرن من الزمان ، ذكروا أنه من المحال أن تجرى عربات حديدية ذات عجلات ملساء فوق خططين من الحديد وهي محملة بالاثقال دون أن تتزلق ، وأنه من المحال أن تجرى هذه العربات الحديدية بسرعة عشرين أو ثلاثين ميلاً في الساعة دون أن تهشم أجسام البشر الذين يركبون هذه العربات أو تحدث لهم أشد أنواع الاضطرابات الحمية والعصبية .

وكان القول بإمكان صعود الإنسان إلى القمر أو غيره من الأجرام السماوية في مستهل هذا القرن يعد ضرباً من الخيال

لا يمكن تحقيقه ولكننا اليوم أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الصعود إلى هذه الأجرام السماوية بفضل هذه الصواريخ الجبارة التي هي من صنع الإنسان . إن عدد الأشياء التي نعثر الإنسان بأنها محالة تتفق وعدد المخترعات والمكتشفات الإنسانية .

إن عالماً ممتازاً مثل السير همفري دافى Humphry Davy قد سخر من الفكرة القائلة بأنه في الإمكان إنارة مدينة كبيرة مثل لندن بمصابيح الغاز ، وأن أكاديمية العلوم الملكية البريطانية قد ماجت بأصوات السخرية والاستنكار عند ما أعلن أمامها بنجامين فرانكلين رأيه عن مانعة الصواعق . ومجمل القول إن الاعتقاد في استحالة تحقيق الأشياء الصعبة أو غير المفهومة من العادات التي كونتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل . لقد كان هناك من سوء الحظ نبوءات كثيرة ظهرت خلال التطور البشري لم يتحقق منها شيء ، وكان إلى جانبها نبوءات صادقة ولكنها كانت مع ذلك موضع الشك والسخرية شأنها في ذلك شأن النبوءات الكاذبة .

إن الشك عادة عقلية مفيدة ، ولكن كثيراً ما يساء استعماله . فيكون ضرره أكثر من نفعه . وإنه على الرغم من الشك والسخرية في محيط التكهن بالغيب فإن النبوءات ظاهرة قد تغلغت في

ضمير الإنسانية منذ آلاف من السنين ، ولم تقو أية قوة على محوها من ضمير الإنسانية . إن تعلق المرأة بالحديثه — بل وكثير من الرجال — بالمتجمين والعراقين وضاربى الرمل والودع أمر يفوق الوصف . إن اعتقادنا فى النبوءات لا يمكن أن يموت شأنه فى ذلك شأن اعتقادنا فى كثير من الظواهر النفسية والأمور الروحية وإن عز علينا تفسيرها .

ومن أبسط الأمثلة التى يفسرون بها سبق النظر فى مجال الغيب، قولهم فلتتخيل قطار سكة حديد يسير حول جبل من الجبال ، ويقرب منه من الناحية الأخرى من الجبل قطار آخر يسير على نفس الخط الحديدى . وأن كلا من القطارين يسير بسرعة واحدة ولا يبرى أحدهما شيئاً عن الآخر . ولا يتلقى هذان القطاران أية إشارة للتوقف ، والنتيجة الحتمية هى تصادم القطارين لأن كلا منهما جاهل بمصيره . وهناك رجل فى طائرة على ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام فوق القطارين وهو مدرك تمام الإدراك لما سوف يحدث للقطارين فهنا واضح أمامه تمام الوضوح . ولو كان فى استطاعته الاتصال بالقطارين لأنبأهما بالكارثة التى تنتظرهما، اللهم إلا إذا اتخذ القطاران من الإجراءات السريعة المباشرة التى تحول دون وقوع هذه الكارثة . إن هذه القدرة

النبؤية بسيطة غاية البساطة بالنسبة للطيار إنه في حالة تسمح له بأن يرى ويدرك ويتنبأ . كذلك العراف هو في حالة نفسية تسمح له بأن يرى أحداث المستقبل ويتنبأ بها .

والواقع أن التنبؤ بالغيب ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية، حظها من البحث العلمى ضئيل بالمقارنة مع الظواهر الإنسانية الأخرى . لقد ضمت كثير من المؤلفات المنوعة شوارد مبعثرة من المعلومات المثيرة عن التنبؤات الصادقة والأخرى الكاذبة . وليس غرضنا من هذا البحث المقتضب أن نؤيد أو ننكر القدرة على التنبؤ بالغيب ، إنما غرضنا أن نجعل القارئ على دراية بموضوع من الموضوعات التى تثير اهتمامه وشغفه ثم نترك له بعد ذلك الحكم على الموضوع وفق ما يهتدى إليه عقله وإحساسه .

الفصل الثاني التنبؤات في العهد القديم

يصف أفلاطون التنبؤ بأنه «أسمى الفنون» وكان القدماء يمارسونه على نطاق واسع عن طريق أماكن الوحي المختلفة oracles فقد كان في العهد القديم مراكز خاصة للتنبؤ يذهب إليها الناس لاستشارة الآلهة فيما ينوون القيام به من أعمال ، فتحدث إليهم الآلهة على لسان الكهنة الموجودين في كل مركز من تلك المراكز وبأسلوب خاص يتميز به كل مركز منها .

وكان الرأي أن هذا النوع من التنبؤات يعد ضرباً من الهذيان، إذ كان يعترى الكهنة في تلك المراكز التنبؤية نوع من الهذيان، فتتلقى ألسنتهم بأقوال تنبئ عما سيحدث في قابل الأيام. وقد فسر سقراط هذا الهذيان بأنه هبة خاصة من السماء ومنبع أعظم النعم بين البشر . فقد أسبغت كاهنات دلي ودودونا — وكانا من أهم المراكز التنبؤية في بلاد اليونان القديمة — نعماً وفيرة على بلاد اليونان عند ما كان يعترى هؤلاء الكاهنات هذا الضرب من الهذيان في حين أنهن لم يقدمن إلا القليل من هذه النعم ومن في كامل وعين .

لقد كان هذا هو رأى أعظم حكماء اليونان في هذه النبوءات الأمر الذى جعل جميع الإغريق يعتقدون فيها طوال مئات بل آلاف من السنين ، ويغمرون مذابح المعابد القائمة في تلك المراكز النبوية بالهدايا والقرايين حتى إننا عند ما نقرأ اليوم عن وحى دلفى وما كان به من ساحات متسعة ونافورات ومعابد جميلة ، واستاده العظيم ومسرحه الفخم ونماثيله الرخامية العديدة والأخرى المصنوعة من البرنز بل ومن الذهب ، ورسومه التى أبدعتها ريشة الرسام الإغريقى الشهير بوليغنوتس Polygnotus لتضاهل أمام أعيننا جميع الكنوز المحفوظة الآن في أكبر المتاحف العالمية .

لقد تجمع هذا الثراء العظيم في بقعة واحدة من أرض اليونان لوجود كاهنة في تلك البقعة تدعى « ييثيا » Pythia كانت تلوك بين أسنانها بعض أوراق شجر الغار وتستنشق الغازات التى كانت تنبعث من شق في الصخر أسفل الكرعى^{٣٠} الذى كانت تجلس عليه ، وتشرب من مياه نبع كاسوتس المقدس فتعربها شبه غيبوبة وتهذى بكلام ينبيء عما سيقع من أحداث في مستقبل الأيام .

كان الناس يلجأون إلى كاهنة دلفى هذه ويلقون إليها

بأسئلتهم فتأتيهم الإجابة وكثيراً ما تكون مشوشة وغير مفهومة بالنسبة للسائل فيتصدى لتفسيرها حاشية بيثا من الكهنة الملازمين لها ويصيغونها في أبيات مفهومة من الشعر المرسل . وإن ثراء وحى دلفي وشهرته الكبيرة التي طالعت مع الزمن للدليل قوى على أن الناس في ذلك العهد القديم كانوا يعتقدون في صحة النبوءات التي تصدر عن هذا الوحي ، وأنها قد تحققت على مدى الأيام .

ولعل أقدم مراكز التنبؤ اليونانية هي وحي دودونا Dodona في جنوب مقلونيا . وكان هذا المركز يقوم وسط مرج من أشجار البلوط . وكان الاعتقاد أن حفيف هذه الأشجار يحمل في طياته إرادة الإله زيوس ومشيئته . وكان الكهنة بدورهم يقومون بتفسير هذه الأصوات التي تنبعث من أوراق هذه الأشجار ويعلمونها الإجابة المنشودة عن الأسئلة التي كانت تنال على كهنة هذا المركز من الوافدين إليهم من جميع أنحاء اليونان استنباء عما يخفيه عنهم القدر من أمور وأحداث .

والظاهر أن الآلهة كانت تنشق المروج والأشجار وخاصة أشجار التوت والبلوط ونبات الطرفاء . وتذكر كتب التاريخ أن چان دارك تلك المسيحية العنراء كانت تستمع إلى هوائف عليا تأتي إليها من بين أشجار الغابة التي كانت ترعى فيها أغنامها

حتى أنها قد توسلت إلى جلاديهـا قبل إحراقها أن يذهبوا بها مرة أخرى إلى الغابة حتى تستمع إلى هذه الحوائف السماوية التي كانت تستمع إليها من قبل في غابات موطنها دومري Domremy من أعمال فرنسا .

ومهما يكن من الأمر فإن وحي دودونا هذا كان قديم العهد في الوقت الذي أخذ فيه هوميروس يتغنى بأشعاره . وقد تجمعت حول هذا الوحي الكثير من الأساطير والأخبار ، منها أن جماعة من أهل مقاطعة بيوشيا اليونانية جاءوا لاستشارة هذا الوحي فأشارت عليهم كاهنته مرتيل myrtil بأن الأجلر بهم أن يفعلوا أكثر الأشياء نكراً ، فلم يسعفهم تفكيرهم في تلك اللحظة بأكثر من أن يلقوا هذه الكاهنة في دست مليء بالماء المغلي وقالوا إنهم لم يجدوا أكثر من ذلك عملاً يتسم بالحدود ونكران الجميل . والواقع أن كثيراً من هؤلاء الكهنة والعرافين قد لاقوا مصيراً سيئاً أشبه بهذا المصير إما بسبب النبوءات التي قالوا بها ولم تلاق هوى في نفوس سامعيها ، وإما بسبب عدم تحقق النبوءات التي قالوا بها .

وقد عثر الأثريون على بعض لوحات نقشت عليها بعض الأسئلة التي كان يوجهها الناس إلى وحي دودونا منها هذا السؤال :

« هل فقدت منى أغطيتى وصادقنى أم سرقها غريب ؟ » وسأل آخر : « هل أنا أبو هذا الجنين الذى سوف تضعه زوجتى نيلا nyla قريباً ؟ » وغير ذلك من الأسئلة التى تدور على هذا المنوال. ويا حبذا لو كان فى مقدورنا أن نعرف ردود هذه الأسئلة ولكن المجموعات الكبيرة التى كانت تضم هذه النبوءات المختلفة والتى ظلت على قيد الوجود أكثر من ألفين من السنين قد اختفت نهائياً حوالى الوقت الذى استولى فيه الترك على مدينة القسطنطينية ولم يبق منها إلا بعض فقرات لا تغنى الباحث كثيراً فى هذا الموضوع .

ويحمل القول إن هذه النبوءات كانت من الأمور المعروفة فى العهد القديم . وكان يعتقد فيها كثير من الأمم المتحضرة وفى طبيعتها اليونان التى كانت تضم أحكم حكماء العهد القديم من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط . والمعروف أنه قد جاء على لسان كاهنة دلتى أن سقراط هو أحكم حكماء البشرية . وكان لهذا القول أثر عميق فى تفكير سقراط .

وبما يذكر أن هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته قال :

« إني لمغتبط بهذا الموت كل الاغتباط لأن الإله لم يعطنى

شارة عند ما برحت دارى ولا عند ما اعتليت هذه المنصة لأتولى
الدفاع عن قضيتى ومن عادة الإله أن يعطى هذه الشارة كلما
هددنى الشر .

وهناك كلمة مشهورة يغروها التاريخ إلى سقراط وهى :
« إن هناك شيئاً إلهياً ذلك هو ما أطيعه دوماً وهو على الرغم من أنه
لا يدفعنى إلى عمل ما فإنه كثيراً ما يمنعنى عن الإقدام على عمل
بالذات » . ويروى عن سقراط أيضاً أنه رأى ذات يوم صديقه
« أقريطون » وقد عصب عينه برباط فقال له مستفسراً : « ماذا
دهاك يا أقريطون ؟ فأجابه هذا قائلاً :

« بينما كنت أتجول فى الريف إذا بغصن شجرة منحني قد
انطلق وأصاب عيني » فقال سقراط : « هذا معقول لأنك أبيت
طاعنى عند ما أرسلت فى طلبك لتعود من حيث كنت ، استناداً
إلى التنذير الإلهى الذى اعتاد زجرى » .

على أن اليونانيين فى ذلك العهد البعيد كانوا نزاعين أيضاً
إلى الشك فى كل شىء كما هو شأننا اليوم . فتحزن اليوم نشك
فى كل شىء ونسخر من كل شىء ونطلب تفسيراً معقولاً لكل
شىء وكذلك فعل اليونانيون . على أن الكهنة فى مراكز هذه
الهواتف الإلهية كانوا على جانب كبير من اللباقة والدهاء

وبعد النظر ولم تجارب متنوعة في شتى الأمور . وليس من شك مع هذا أن الكثير من هذه التنبؤات التي قالوا بها لم يتحقق ، كما أن كثيراً منها كان على جانب كبير من الغموض والإبهام .

على أن هذا كله لا يفسر لنا ذلك النظام التنبؤي الذي ظل قائماً طوال آلاف السنين في أكثر الأمم حضارة وتقدماً . لقد استشار الملوك والساسة هذه الحواتف في أعقد المشاكل في السياسة وشؤون الدولة . وقد قال شيشرون خطيب الرومان الأشهر — وكان خصماً عنيداً للتنبؤ في مختلف فنونه — « إن مهبط الوحي في دلفي ما كان يكثر زواره على هذا النحر ويشهر إلى هذا الحد ويزدحم بالقرابين ، تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب ، لو أن الناس في مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار . والآن وقد تغير هذا منذ زمن طويل واضمحلت شهرته في الوقت الحاضر إذ لم يعد له من بعد النصيت ما كان له قديماً ، فإنه ما كان يصيب هذه الشهرة في ماضيه لو أنه كان غير خلاق بالتقدير في أعلى مراتبه . ومن الممكن أن تكون الأبنخة الأرضية التي كانت تضيء نفس كاهنة « ييشيا » بالإلهام الإلهي قد انخفضت بالتدريج على مر الزمان ، كما جفت فيما نعلم أنهار وانخفضت من الوجود . بينما غير بعض الأنهار الأخرى بالانحراف

والدوران مجراه » .

ولعل من أشهر نبوءات العالم القديم التي صدرت عن وحي
دلتى هي النبوءة المتصلة بالملك قارون Croesus ملك ليديا .
وكان هذا الملك من أغنى ملوك الأرض وكان يضرب ببراءته
الأمثال فيقال أغنى من قارون . وقد حفظت لنا كتب التاريخ
قصة هذه النبوءة التي قبلت لهذا الملك والرؤيا التي رآها وما كان
من أمر تحققت النبوءة والرؤيا معاً .

اعتلى قارون هذا عرش بلاد ليديا بعد وفاة والده وبدأ بحكم
وهو في الخامسة والثلاثين من عمره . وقد أغار قارون على جميع
الولايات اليونانية في آسية الصغرى، سواء ما كان منها تابعاً
للأيونيين أو للأبوليين، وأخضعها جميعاً إلى سلطانه. ولم يكف
قارون بإرغام اليونانيين في آسية الصغرى على دفع الجزية له، بل
صمم على بناء أسطول ضخم يهاجم به اليونانيين من سكان الجزر،
ولكنه أقلع عن تلك الفكرة نزولاً على مشورة بعض الناصحين
واكتفى بأن أصبح صاحب الكلمة العليا على جميع الدويلات
التي كانت متشرة في آسية الصغرى .

وبعد أن حصل قارون على هذه الانتصارات كلها وبسط
من سلطان ليديا أصبحت ساردس Sardis عاصمة ليديا موثلاً

للمشاهير والعظماء، وأصحاب الفلسفة والمواهب الفنية في جميع البلاد . وكان من بين هؤلاء الذين وفدوا على ساردس صولون المشرع اليوناني المشهور . فقد سن هذا المشرع نزولاً عند رغبة الأثينيين مجموعة من القوانين لتطبيقها في بلادهم ثم خرج بعد ذلك بجوب بلاد العالم في رحلة استغرقت عشر سنوات متعبة . وكان الغرض الظاهر من هذه الرحلة هو الدرس والإطلاع ، أما هدفه الحقيقي فكان لتجنب ضرورة إلغاء أو إبطال هذه القوانين التي سنها . فقد كان الأثينيون لا يستطيعون أنفسهم عمل ذلك ؛ إذ آلوا على أنفسهم أن يحتفظوا بهذه الأنظمة القانونية التي وضعها صولون دون انتهاك طوال عشر سنوات .

وقد زار صولون عدة بلاد منها مصر ثم ذهب ، إلى ساردس عاصمة الملك قارون وهناك قابله الملك بالترحاب ودعاه للإقامة في قصره . وبعد أيام من حضوره إلى القصر كلف قارون خدمه بأن يصطحبوا صولون ويطلعونه على خزائن ثروته ليرى ما بها من نقائس وتحف . ولما تم ذلك استدعاه قارون ووجه إليه الخطاب قائلاً :

« ضيفي الأثيني ، إن صوت الشهرة يفصح عالياً عن حكمتك . ولقد سمعت الكثير عن أسفارك وأنتك قمت بدافع

حبك للفلسفة بزيارة جزء كبير من العالم، الأمر الذي دفعني لأن أعرف منك أى رجل من بين الذين شاهدتهم هو أسعد الناس فى رأيك .

كان قارون يتوقع أن يكون هو أسعد البشر ، الأمر الذى دفعه إلى سؤال صولون هذا السؤال . ولكن صولون برهن بإجابته أنه من أنصار الحق وأنه يمحى التملق والمداينة .

أجاب صول : « أظن أيها الملك أن تللوس الرجل الأثينى هو الشخص الذى يستحق أكثر من غيره أن نطلق عليه لفظ السعيد » . وقد عجب قارون من هذا القول فسأله : « وعلى أى شيء أقمت هذا الادعاء ؟ » فأجابه صولون : « لأن تللوس هذا كان يعيش فى ظل حكومة عادلة ، وكان له كثير من الأبناء الفضلاء المحبوبين . وقد رأى تللوس أحفاده ولم يميت أحد منهم فى حياته . وبعد حياة موفقة ناجحة احتفلنا بجنائزته بكل مظاهر التشریف والتبجيل ، إذ اشترك فى الدفاع عن وطنه ضد العدو ، ووقع شهيداً فى ميدان الفخار والمجد . وقد دفنه الأثينيون حيث استشهد ، وأقاموا له احتفالاً فخماً » .

وظل صولون يحكى من أجداد تللوس هذا الشيء الكثير

ولكن قارون قاطعه لأنه رغب مثلهما أن يعرف الشخص الذى يمكن أن نعتة بالسعيد بعد تلوس هذا، ولم يكن يشك قارون أن إجابة صولون سوف تنصب عليه هذه المرة .

أجابه صولون : « هما كليوبس Cleobis وبيتو Bito وهما أخوان من أهل أريجيف، كانت ظروف حياتهما ملائمة، وقد اشتهرا بقوتهم البدنية الأمر الذى توجا من أجله بأكاليل الغار لفوزهما فى المسابقات العامة . وهما يحكى عنهما أنه إبان الاحتفال الذى أقيم للإله جيتو حيث كان المقروض أن تحمل أمهما إلى المعبد على عربة تجرها الثيران . ولسبب ما لم تتمكن الثيران من القيام بعملها ، فما كان من هذين الشابين إلا أن وضعا نير العربة على أكتافهما، وسحبا العربة وحياها أمهما حتى باب المعبد لمسافة طولها نحو ستة أميال . وقد قاما بذلك أمام عدد جم من النظارة، وما أن انبها من تلك المهمة حتى اختما حياتهما بشكل فريد سعيد . فقد دلل الآلهة فى هذه الحادثة على أن الموت نعمة تفوق نعمة الحياة . لقد أفصح الحاضرون عن إعجابهم بعمل هذين الشابين وامتدحوا قوتهم البدنية وتمنت النساء أن يكن فى مركز أمهما التى اعتبعت لهذا العمل الذى صاحبه المجد والفخر .

وقفت الأم أمام المذبح وابتهلت إلى الآلهة أن تخلع على

ولديها أحسن النعم التي يمكن أن يحصل عليها إنسان . وما أن انتهت الأم من ابتهالاتها وانتهت الجموع من تقديم القرابين حتى انتحيا الشابان مكاناً منعزلاً بالمعبد ليأخذوا قسطهما من الراحة بعد هذا العمل المجهد ، ولكنهما لم يقوما من مكانهما أبداً بعد ذلك إذ انتهت حياتهما عند هذا الحد . وكان من أمر أهل أريجيف أن أقاموا تمثالين لكليوس وبيتو واحتفظوا بهما في معبد دلفي على اعتبار أنهما شخصان يستحقان أعظم التقدير .

وتلك في رأى صولون وتقديره سعادة من الدرجة الثانية . ظل قارون غير راض عما سمعه من صولون فرجه الكلام إليه قائلاً : « أيها الأثني ، إنك تنظر باحتقار إلى مظاهر ثرائي بحيث وضعتني في مرتبة أدنى من مرتبة أشخاص مغمورين لاشأن لهم » . فقال صولون : « لا تنعت أي شخص بأنه سعيد إلا بعد أن تعرف طبيعة مبتته . إن أسباب السعادة ليست في استطاع أي شخص أن يحصل عليها جميعاً » وما إن سمع قارون هذه الكلمات من صولون حتى انصرف عنه عازفاً عن سماع رأيه فيه ؛ فخرج هذا المشرع الفيلسوف من قصر قارون آسفاً على مسلك هذا الملك ، الذي أبي أن يستمع لصوت الحكمة على لسان هذا المشرع العظيم .

وما إن رحل صولون حتى رأى قارون مناماً أزعجه أشد الإزعاج ، وكأنه عقاب حكمت به السماء نظير عجرته وادعائه بأنه أسعد الناس جميعاً . رأى قارون في منامه رؤيا تهدده بكارثة حرمة فيما بعد من ولده . كان لقارون ولدان : أحدهما أبكم ، أما الآخر ويدعى أتيس Atys فكان يمتاز بتفوقه ونباهته . وكان مغزى الحلم الذى رآه قارون أن ولده أتيس سوف يموت بطعنة من سن رمح حديدى . هب قارون قرعاً من هذا الحلم وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه . وكانت أول خطوة اتخذها أن قرر تزويج ابنه هذا ثم نجاه عن قيادة الجيوش الليدية التى قادها أتيس من قبل فى عدة حملات ، ثم نقل بعد ذلك جميع الرماح والنبال وغيرها من أدوات القتال من منازل الرجال إلى منازل النساء حتى لا تصيب واحدة منها ابنه ، إذ ربما تسقط عليه من مكانها المعلقة به .

وبينا كان قارون منهمكاً فى حفلات زفاف ابنه أتيس إذ جاء إلى ساردس أحد أفراد الأسرة المالكة فى فريجيا لاجئاً بعد أن ارتكب جريمة قتل . وقد حضر إلى قصر قارون طالباً من الملك حمايته . ولما سأله قارون فى أمره علم منه أنه يدعى أدرستوس وأنه قتل أخاه عن غير عمد فنفاه أبوه من البلاد . ولما كان قارون

على علاقات طيبة مع أسرة هذا اللاجئ، فقد فتح له أبواب قصره وبسط عليه حمايته .

وقد ظهر في حوالى ذلك الوقت في ميسيا Mysia بالقرب من أولبوس ختيرير برى هائل الحجم كان يهبط من الجبال بين الحين والآخر، ويفتك بمن يصادفه من أهل تلك البلاد . وقد هاجمه الأهالى أكثر من مرة ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه . ولما عز عليهم الأمر استنجلوا بالملك قارون، وطلبوا إليه أن يرسل إليهم ولده على رأس جماعة من شباب ليديا، ومعهم عدد من كلاب الصيد لتخليصهم من هذا الحيوان المفترس . ولكن قارون تذكر الحلم الذى رآه فأرسل إلى أهل ميسيا يعتبر عن إرسال ولده، بحجة أنه قد تزوج حديثاً ولا يسمح له وقته بمصاحبة هذه البعثة المطلوبة . ولما سمع أتيس بذلك أسرع إلى أبيه قارون ورجاه أن لا يحرمه من هذه الفرصة التى تتيج له أن يظهر شجاعته أمام زوجه، وأمام مواطنيه بوجه عام . فأخبره أبوه خبر الحلم الذى رآه فأقنعه أتيس أنه لو كان قد رأى في المنام أنه سيموت بوخزة قرن أو نحو ذلك لكان له العذر فى منعه من مصاحبة هذه البعثة . وأخيراً سمح له أبوه بالذهاب إلى ميسيا مع أفراد البعثة للقضاء على هذا الختيرير البرى المتوحش .

وكان من أمر قارون أن أحضر هذا اللاجئ الفريجي وطلب منه نظير إيثوته وبسط حمايته عليه أن يكون حارساً أميناً لابنه طوال مدة هذه البعثة . ولقد قبل ذلك هذا اللاجئ عن طيب خاطر .

خرجت البعثة إلى ميسيا وكانت تضم نخبة من شباب ليديا الماهرين في الصيد والقنص ومعهم عدد من كلاب الصيد المدربة . وقد وصلوا إلى جوار أولبوس وبحثوا عن الخنزير حتى وجدوه فضيقوا عليه الحصار وهاجموه برماحهم . وحدث أن سدد ادراستوس رمحه نحو الخنزير ولكنه أخطأه وأصاب سن الرمح أتيس فقتله . وبذلك تحققت رؤيا قارون . وما إن علم قارون بمقتل ولده حتى أخذ يندب سوء حظه . وقد تقدم إليه ادراستوس طالباً منه أن يأمر بقتله لما اقترفته يداه . ولكن قارون أجابه قائلاً : « إنك لست مذنباً فقد ارتكبت ذلك عن غير عمد ، إن الإله الذي حذرنى من هذا الشر هو الذى قام به » .

وقام قارون بعد ذلك بدفن ولده باحتفال مهيب . وفي المساء تسلل ادراستوس الذى قتل أخاه ثم صديقه إلى قبر أتيس واختدعته وينعت نفسه بأنه أتعس البشر طراً ثم طعن نفسه بمنجبر فخر صريعاً فوق قبر أتيس .

أمضى قارون الستين اللتين أعقبنا وفاة ابنه في حزن عميق . ولم يكن يشغل باله في تلك الفترة إلا ازدياد عظمة الإمبراطورية الفارسية وعلى رأسها الملك كايروس بن قمبيز . أخذ قارون يتساءل هل يقدم على عمل يوقف به توسع هذه الإمبراطورية قبل أن تصبح خطراً يهدد دولته ، أم يترقب ما سوف تجيء به الأيام . وأخيراً صمم على استشارة مراكز الوحي في اليونان والأخرى الموجودة في ليبيا . وأرسل لهذا الغرض رسلاً إلى دلي ودودونا ويرانشيدا وتروفونيوس وأمفياروس وهي أشهر مراكز الوحي في اليونان القديمة ، كما أرسل رسله إلى مركز الوحي الشهير في صحراء ليبيا وهو المعروف باسم زيوس آمون .

وكان غرض قارون من ذلك أن يختبر صدق هذه الهواتف السماوية ثم يحصل منها بعد ذلك على رأى قاطع بخصوص حملة يوجهها لمقاتلة الملك كايروس والقضاء على دولته . وزود قارون رسله بتعليماته وهي أن يسألوا هذه المراكز في اليوم المائة من رحيلهم من ساردس عما يفعله الملك قارون في ذلك اليوم ويدونوا ذلك كتابة ثم يخبرونه به بعد عودتهم إلى ساردس . ولم يحفظ لنا التاريخ الإجابات التي ذكرتها هذه المراكز التنبؤية ؛ وكل ما يعرف أن رسل قارون ما إن دخلوا معبد دلي في اليوم المحدد

وتقدموا بسؤالكم لكاهنته بشيا حتى أجابت :

إننى أحصى الرمال وأكيل البحار
وأسمع الأبيسكم والأصم صوتي
والآن يتصاعد إلى أننى رائحة
سلحفاة وشاة فى قدر يغليان
حيث نحاس من أسفل ومن أعلا نحاس

ولما عاد الرسل إلى ساردس وأخبروا الملك بالإجابات التى
سمعوها من هذه المراكز المختلفة وجد أنها غير مرضية ، ولكن
ما أن سمع إجابة وحى دلتى حتى صاح بأن هذا هو ما كان يفعله
فى ذلك اليوم المحدد : لقد عمد قارون فى ذلك اليوم إلى صنع
شئ لا يخطر على بال أحد فقد أخذ سلحفاة وشاة وقطعهما
إرباً ثم وضعهما فى قدر من النحاس له غطاء من النحاس
وأشعل النيران تحت القدر فأخذ يغلى بما فيه . وعزم قارون بعد
ذلك على أن يستعوز على عطف ورضاء إله دلتى عن
طريق تقديم القرابين العظيمة . وتذكر كتب التاريخ أنه قدم
من جميع الحيوانات الصالحة للقرابين ثلاثة آلاف رأس من كل
منها ، كما أنه أحرق عدداً كبيراً من غالى الثياب والرياش المحلاة

باللألىء وتقيس الأحجار الكريمة على أمل أن ذلك كله سوف يكسبه عطف ومناصرة إله دلتى كما طلب من الليدين أن يقدم كل منهم ما يملك قرباناً لهذا الإله .

وبعد أن انتهى قارون من تقديم هذه القرابين حتى أذاب قدرًا كبيراً من الذهب وصنع منه قواعد للمائيل طول الواحدة منها ستة أشبار وعرضها ثلاثة أشبار ، وارتفاعها شبراً ، وبلغ عددها ١١٧ قاعدة . وكان أربع من هذه القواعد من الذهب الخالص أما الباقية فكانت من خليط الذهب والفضة ، كما صنع تمثالاً لأسد من الذهب الخالص حمله على هذه القواعد .

ولما أتم قارون صنع هذه الأشياء كلها أرسلها إلى دلتى ومعها أكثر من ذلك ، قدران كبيران إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة ، وضعت الذهبية منها إلى يمين الداخل إلى المعبد والفضية إلى يساره . وأرسل قارون أكثر من ذلك ، أربع قوارير فضية لحفظ الخمور واثنين لحفظ ماء الطهور إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة وغير ذلك من تقيس التحف والهدايا .

وطلب قارون من الرسل الذين حملوا هذه الهدايا إلى معبد دلتى أن يسألوا وحى دلتى هذا السؤال : « هل يخرج قارون لملاقاة القرمس ؟ » وإذا كان الأمر كذلك ، فهل سيتحالف معه غيره

في سبيل تحقيق هذا الغرض؟» وكانت الإجابة التي تلقاها كما يلي : « إذا خرج قارون لمحاربة الفرس فإنه سيقضى على إمبراطورية عظيمة » . كما تضمنت الإجابة توصية بالتحالف مع أقوى الدويلات اليونانية .

ولما سمع قارون هذه الإجابة فرح غاية الفرح على أمل أنه هو الذي سيقهر كايروس ويقضى على دولته . لقد فسر قارون هذه النبوءة وفق هواه فعمل على إيجاد تحالف دفاعي بينه وبين كثير من الدويلات اليونانية، وكذلك بينه وبين المصريين ، ثم خرج بعد ذلك لمحاربة فارس . وقد حذره بعض شقلاء القوم من مغبة هذه الحملة لأنه لو انتصر على الفرس فسوف لا يبقى شيئاً من هذا الانتصار أما إذا لحقت به الهزيمة فسوف يفقد كل شيء ، ولكن قارون اختار الحرب وكانت النتيجة أن لحقت به هزيمة منكرة . فقد اجتاحت الفرس مدينة ساردس عاصمة ليديا بعد أربعة عشر يوماً من بدء القتال ووقع قارون نفسه في الأسر .

وقد أمر كايروس ملك الفرس بأن يحرق قارون حياً كومة هائلة من الحطب . وبينما هو واقف على هذه الكومة في انتظار مصيره المحزن وإذا به يخرج من بين ضلوعه أنات عميقة ويهتف

ثلاث مرات قائلا : صولون ، صولون ، صولون . فقد تذكر
للتو قول صولون بأنه لا يصح أن ننت أي شخص بأنه سعيد
إلا بعد أن نعرف طبيعة ميته . وقد أحب كايروس الملك المتصر
أن يعرف ما يقصده قارون من مناجاة هذا الشخص الذي
يسمى صولون، ولكن قارون ظل صامتا فترة من الوقت لا يجير
جواباً ولا أرغم على الكلام ذكر قصته مع صولون المشرع الأثيني
وأن المال في واقع الأمر لا يمكنه بحال أن يسعد صاحبه .

وبينا كان قارون يقص على السامعين قصته مع صولون إذا
بالنيران قد اشتعلت في كومة الخطب التي سيحرق عليها قارون
هو واثني عشر شاباً من أبناء ليديا . ويقال إن كايروس بعد أن
سمع هذه القصة من قارون رأى أنه من الجهل والغباء أن يقدم
للنيران رجالاً يمكن أقل منه جاهاً وثراء، وخشى أن يحل به هو
نفسه في يوم من الأيام ما حل بقارون، إذ ما من شيء يملكه
الإنسان له صفة اللوام والبقاء ولذلك أمر بأن تطفأ النيران بأسرع
ما يكون وأن يتزل قارون من فوق منصة الإحراق هو ومن معه ؛
ولكن الجند لم يستطيعوا التحكم في النيران التي كان قد استمر
أوارها في تلك اللحظة .

وتذكر كتب التاريخ أن قارون لما علم أن الملك كايروس

قد غير من رأيه وأن كل فرد من الحاضرين يحاول إطفاء النيران دون جدوى ابتهل إلى الإله أبولو أن يهب لنجدته وتخليصه من هذا البلاء المحيط به إذا كان قد تقبل منه أية هدية أو قرباناً من القرابين التي قدمها إليه . وكان اللعج يهطل من عيني قارون وهو يتوسل إلى هذا الإله . وفجأة تغيم السماء بعد أن كانت صافية وتهب العاصفة وتهمر الأمطار فتخمد كومة الحطب التي كان سيحرق فوقها قارون .

ولما شاهد كايروس ذلك أدرك أن قارون من الرجال الورعين المتعلقين بالآلهة لذلك أدناه منه وسأله : « أخبرني يا قارون من الذي حرضك على الخروج ضدي وبهذا أصبحت عدواً لي بدل أن تكون صديقاً ؟ » فأجابه قارون : « أيها الملك إنني صنعت ذلك لحظي التعس ولطيفة نفسك المتناهية، فقد دفعني إلى ذلك الإله الذي استشرته، فليس من أحد هو من البلاهة وعدم الحس والتقدير بحيث يؤثر الحرب على السلام، ففي وقت السلم يدفن الأبناء آباءهم أما في الحرب فيدفن الآباء أبناءهم » .

ومهما يكن من الأمر فإن قارون قد علم أنه بخروجه لقتال الفرس فإن دولة كبرى سوف تنهار — كما وعدت بذلك النبوءة — وإن كان الذي حدث هو انهيار إمبراطوريته .

هذا ولم تكن النبوءات محصورة في اليونان وحدها بل كانت معروفة أيضاً في مصر، بل هي في مصر أقدم تاريخاً منها في اليونان. فوحى آمون رع في مصر يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وكان به طيف يمثل الإله يتحدث إلى الناس، ويقبل منهم الأسئلة ويجيب عنها، ويقال إن الإسكندر الأكبر عند ما زار معبد آمون رع في صحراء مصر خرج إليه هذا الطيف وخاطبه قائلاً: «إني أعذك بأنك سوف تملك البلاد جميعاً وتخضع لك جميع الأديان».

واشتهر أيضاً في البلاد المصرية وحى هليوبوليس، وكان الناس يفتون إليه في كل بلد لاستشارة كهنته في أهم أمورهم. والمعروف أن الإمبراطور الروماني تراچان أرسل قبل أن يشترك في حرب برثيا وفداً إلى هذا المركز التنبؤي لاستشارة كهنته في مصير هذه الحرب. وتذكر التواريخ أن الكهنة أجابوا إجابة صامته، وذلك بأن أرسلوا إلى تراچان غصن كرم مكسور دون أى تعليق أو شرح. وقد قتل هذا الإمبراطور في هذه الحرب وحمل جثمانه إلى روما. وعند ذلك تذكر الناس نبوءة وحى هليوبوليس وقالوا له كان تراچان يعتقد حقاً في هذه النبوءات لما أقدم على هذه الحرب بعد أن وصله هذا الغصن المكسور.

والظاهر أن أخبار النبوءات الغامضة هي التي وصلت إلينا دون النبوءات الواضحة . والواقع أنه كانت هناك نبوءات صادقة كثيرة قدمت لأفراد كثيرين ولكن لم يهتم أحد بتسجيل هذه النبوءات الشخصية بعكس الحال مع النبوءات السياسية الكبرى التي كان يسعى إليها الملوك والحكام .

ومهما يكن من الأمر فقد ظلت هذه النبوءات قائمة أجيالا طويلة وكانت معروفة أيضاً في العهد المسيحي حتى أن ترتوليان أحد آباء الكنيسة في القرن الثالث الميلادي قد أعلن أن العالم لا يزال مزدحماً بالنبوءات . وكانت الحياة الروائية مليئة بهذه النبوءات وخاصة ما كان منها متصلاً بحياة القياصرة وأعمالهم وهذا هو السبب في اهتمام بعض المؤرخين بهذه التنبؤات .

فقد تنبأ العراف سبورينا Spurrina بما حدث ليوليوس قيصر في اليوم الخامس عشر من شهر مارس . وحذره من خطر عظيم لا يمكن رده سوف يقع في ذلك اليوم . وقد رأت كالبورينا زوجة يوليوس قيصر في منامها حلماً تشاء مت منه غاية التشاؤم؛ إذ رأت أن برج منزلها قد تهدم وأن زوجها قد طعن وهو بين ذراعيها . وكان يوليوس قيصر يشعر بالمرض فأثر المكوث في منزله في ذلك اليوم المشؤم يوم ١٥ مارس سنة ٤٤

قبل الميلاد . غير أن صديقه بروتس ذكر له أن جمعاً غفيراً من أعضاء مجلس الشيوخ ينتظرونه بالمجلس فلا يصح له أن يخيب آمالهم .

وفي أثناء الطريق إلى مجلس الشيوخ قابل قيصر العراف سبورينا وكان الوقت إذ ذاك حوالى الحادية عشرة صباحاً . فما إن رآه يوليوس قيصر حتى ابتسم له قائلاً : « ها قد حل اليوم الخامس عشر من شهر مارس ولم تحدث أية كارثة » فأجابه سبورينا « نعم قيصر ولكن لم يمض بعد هذا اليوم » .

وكلنا نعرف أنه لم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وكان يوليوس قيصر قد انتقل إلى العالم الآخر إثر طعنة نجلاء تلقاها من يد صديقه بروتس . وقال الناس في ذلك الوقت لو كان يوليوس قيصر يعتقد حقاً في هذه النبوءات لما اغتيل في يوم ١٥ مارس .

وكان من الطبيعي أن تعنى القياصرة بعد ذلك بهذه التنبؤات فقد لجأوا إلى مراكز الروحي المختلفة يستنبئون بها الغيب في أوقات الحرب وفي أوقات السلم وفي كل أمر ذي شأن .

وكان بعض مشاهير الرومان لم القدوة على التنبؤ بالغيب نذكر منهم فيجولوس Figulus أحد أعضاء مجلس الشيوخ

بروما . فقد كان هذا الرجل يعد في نظر معاصريه أعلم الناس بالتنجيم . واتهمه البعض أنه من المشتغلين بالفنون الخفية . ويذكرون أنه شاهد ذات يوم اكتافيوس وقد جاء إلى مجلس الشيوخ متأخراً بعض الوقت فلما سأله في ذلك علم منه أنه ولد له ولد في ذلك اليوم فصاح فيجولوس قائلاً : « لقد قدمت إلينا سيداً حاكماً » . ولقد اكتاب اكتافيوس عند سماعه هذا لأن الرومانيين في تلك الأيام كانوا لا يزالون يرون أنهم أمة ديمقراطية لذلك فكر اكتافيوس أن يقضى على هذا الوليد ولكن فيجولوس نصحه أن لا يقدم على ذلك لأنه من المحال أن يغير اكتافيوس من المصير المحتوم .

ولقد لعبت النبوءات دوراً هاماً في حياة أوغسطس ولد اكتافيوس ، في الوقت الذي كان فيه اكتافيوس على رأس جيش في تراقيا لم يفته أن يستشير الوحي هناك عن مصير ابنه . وبينما هو في المعبد يصب الخمر على المذبح وإذا بالسنة الثيران تغمر المعبد وترتفع إلى عنان السماء . وأخبر كهنة المعبد اكتافيوس أن حادثاً مثل هذا قد وقع مرة واحدة وذلك عند ما كان الإسكندر الأكبر يقدم القرابين عند المذبح .

ويقال إن تيوجينس المنجم الروماني المشهور قد رغب في

قراءة طالع الطفل أوغسطس . فما إن ذكر الطفل تاريخ مولده حتى هب تيوجينس من فوق مقعده وركع عند قدمي هذا الطفل . وكان أوغسطس من ناحيته يعتقد في صدق طالعهِ ولذلك ما أن بلغ التاسعة عشرة من عمره حتى غادر المدرسة واعتلى عرش الكبير إمبراطورية معروفة في ذلك الوقت .

ولقد حذر وحى دلتى الإمبراطور نيرون من الرقم ٧٣ . ولقد فسر هذا نيرون بأنه سوف يحكم حتى يبلغ الثالثة والسبعين من عمره ولكن الواقع أن هذه الإشارة كانت تشير إلى حكم خلفه الإمبراطور جلبا الذى حكم عدة أشهر وكان وقتذاك في الثالثة والسبعين من عمره .

وقد دمر نيرون وحى دلتى إبان ثورة من ثوراته الجنونية ، لأنه رأى في وجوده إنتفاص لسلطانه ، وقد خشى أن يظن الناس أن أبولو إله دلتى أعظم من نيرون .

الفصل الثالث التنبؤ بالغيب عند العرب

كانت الكهانة شائعة عند العرب أيام الجاهلية، فكان هناك الكهان والعرافون، وإن كانوا أحياناً يفرقون بين الكهانة والعرافة؛ فيقولون إن الكهانة مختصة بالأمور المستقبلية، أما العرافة فخاصة بالأمور الماضية. ومهما يكن من الأمر فإن المراد بهما هو التنبؤ واستطلاع الغيب. وكان العرب يعتقدون أن للكاهن القدرة على كل شيء، فكانوا يستشيرونه في كل أمر جليل من أمورهم ويتقاضون إليه في خصوماتهم، ويستطبونه في أمراضهم ويستفتونه في ما أشكل عليهم. ويطلبون منه تفسير رؤاهم ويستنبئون عنه مستقبلهم. ولهذا كله كانت منزلة الكاهن عندهم في أعلا المراتب، والكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين، وكان هذا هو شأن الكهان جميعاً في سائر الأمم القديمة. والرأى أن الكهانة ليست أصيلة عند العرب بل جاءتهم من بعض الأمم المجاورة وأغلب الظن أن الكلدانيين هم الذين نقلوا الكهانة إلى بلاد العرب مع ما نقلوه إليها من علم التنجيم. وما يؤيد ذلك أن الكاهن يسمى في العربية أيضاً «حازي» أو

« حزاء » وهو لفظ كلداني معناه الناظر أو الرائي أو البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . وقد اقتبس العرب بعد ذلك لفظ الكاهن من اليهود الذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم وخصوصاً بعد أن دمرها طيطس عام ٧٠ للميلاد .

والكهانة بوجه عام تطلق على أنواع مختلفة من التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس الماء وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والقال ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع ، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم .

وقد جعل العرب الكهانة على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه ، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه . فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرس السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب ، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب . وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « إلا من

خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب .

والصنف الثاني ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد . والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحس . والصنف الرابع ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

ويقولون إن الصنف الأول قد بطل بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم وحرم الكهان بعد بعثة النبي من كشف الغيب . وقد جاء في بعض الروايات أن لا كهانة بعد النبوة ، فلا يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم ، لأن هذا من دلالات الكفر . وجاء في الحديث : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » . ويقولون عن الصنف الثاني إنه لا يعد وجوده .

وقد أفاضوا الكلام عن الصنف الرابع الذي يستند إلى التجربة والعادة وقالوا إن هذا نظير الأسباب التي يستدل بها الطبيب والفلاح والطبايعي على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة مثال الطبيب إذا رأى الجرح مستديراً حكم بأنه عسر البرء ، وإذا رآه مستطيلاً حكم بأنه أسرع برءاً . وكذلك ما علم به الربان من أمور تحدث في البحر والرياح بعلامات تدل على ذلك من

طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى فيقول يقع مطر أو يحدث ريح كذا، أو يضطرب البحر في مكان كذا ووقت كذا. وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا وتيس في وقت كذا، وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل. وذهبوا أكثر من ذلك فقالوا إن هذا أمر لا يختص بالإنسان بل كثير من الحيوان يعرف أوقات المطر والصحو والبرد وغيره كما جاء في كتب الحيوان. والفرس الرديء الخلق إذا رأى اللجام من بعيد نفر وجزع وعرض من يريد أن يلجمه علماً منه بما يكون بعد اللجام. وهذه النملة إذا خزنت الحب في بيوتها كسرتة نصفين علماً منها بأنه ينبت إذا كان صحيحاً وأنه إذا انكسر لا ينبت. والقط يلفظ أذاه ويغطيه بالتراب علماً منه بأن الفأر تهرب من رائحة فيفترقه الصيد، ويشمه أولاً فأن وجد رائحته شديدة غطاه بحيث يوارى الرائحة والحرم، وإلا اكتفى بإيسر التغطية. وهذا الأسد إذا مشى في لين سحب ذنبه على آثار رجله ليغطيه علماً منه بأن المار يرى مواطئ رجله ويديه.

وجاء في كتب التاريخ أن الكهان العرب قد عرفوا نبأ سيل العرم قبل وقوعه ونصحوا أولى الأمر في البلاد بالعمل على انتقاء شره. وكان هذا في عهد عمرو بن عامر الذي تولى رئاسة ولد

فحطّان . إذا كان أخوه « عمران » كاهناً عقيماً وزوجته « ظريفة الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق فأنبأ أخاه بما رأى في كهنته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سبل العرم . وبينما كانت ظريفة الخير نائمة ذات يوم إذ رأت سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت إلى الأرض فلم تصب شيئاً إلا أحرقت . فقزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد وأتت زوجها الملك وهي تقول إن ما رأيته قد أذهب عنها النوم إذ رأت غياً أبيض وأرعد طويلاً ، ثم أصعق فما وقع على شيء إلا احترق فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروح سكنوا من جأشها حتى ثابت إلى نفسها . ثم دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفاً لها أن يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجد — وهي دواب باليمن — متصببات على أرجلهن ، واضمعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها وجلست ، وطلبت إلى وصيفها أن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ، انطلقت بسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديقة ووُثبت منه سلحفاة وانقلبت على ظهرها ، وحاولت أن تعتدل على غير جدوى ، فاستعانت

بذنبها وحشت التراب على بطنها وجنبها وقذفت بولا . فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى الماء ، انطلقت بطريقة إلى زوجها في الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح . فلما أقبلت على زوجها ، ألقت الجاريتين على الفراش فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجه مكانهما فكهنّت هذه وقالت : « والنور والظلماء والأرض والسماء ، إن الشجر لتألف ، وليعودن نلاء كما كان في الدهر السالف » فسألها عن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شداد يقطع فيها الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لحفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قلحفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر يتكفأ » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هي داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة » قال وما هي ويلك ؟ قالت « أجل أن لي فيها الويل ، وما لك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل » فأتى نفسه عن الفراش وقال لها : ما هذا يا طريقة ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب إلى السد فإذا رأيت جرذا

(فأراً) يكثر يديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم أن الحفر حُفِرَ ، وأن قد وقع بنا الأمر . قال وما هذا الأمر الذي يقع ؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الشكل ، فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة لا يقوى على قابها خمسون رجلاً . . . فكر إلى زوجته ، وأنبأها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادني منه ألم	وهاج لي من هوله برح السقم
من جرذ كفحل ختريز الأجم	أوتيس صرم من أفاريق الغم
يسحب صخر من جلاميد العرم	له محاليب وأنياب قضم
ما فاته سحباً من الصخر قضم	كأنما يرعى خضيراً من ملم

فقالت طريقة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجلسك بين البختين ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن البختان مظلمة ، لا تدخلها شمس ولا ريح . . . فلما فعل امتلأت الزجاجاة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد ؟ . . قالت : في سبع سنين . قال فني أيها

يكون ! . . . قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتي أحد علم ذلك لكتبه ، ولا تأتي عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبید في غدها أو في أثناها . ورأى عمرو في منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع والخراب نازل . فكم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال اللأمر حتى أهانه ابنه وضربه ابنه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما . . . فصاح : واذلاه . . . وأقسم ألا يقيم بهذا البلد وباع كل ما يملك ، ثم استغنى أخاه الكاهن في البلد الذي يرحل إليه فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد ، فليحق بقصر عمان المشيد » فكان الذي نزلوه أزد عمان فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليحق ببطن مر » فكان الذين سكنوه خزاعة . . . إلى آخر ما جاء في هذه القصة .

وتبين لنا القصة السابقة أسلوب الكهان في تكهّناتهم فقد كان لكهان العرب لغة خاصة بهم تمتاز بتسجيع خاص يعرف

يسجع الكهان مع تعقيد وغموض ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في مثله : هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة . ولعل الكهان كانوا يلجأون إلى هذا الأسلوب من القول تمويهاً على الناس بعبارات تحتل أكثر من وجه كما يفعل العرافون في الوقت الحاضر .

وقد اشتهر في بلاد العرب أيام الجاهلية كثير من الكهان والكواهن وأقدمهم شق بن أنمار ، وسطيح بن مازن ، وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . ويقال إن شقا هذا كان نصف إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . وأن سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه إلا الجمجمة ووجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عتق ، وكان في عصره من أشهر الكهان . وقد ولد في يوم واحد هو وسطيح وكانا من المعمرين . ومن الكهان الذين نبخوا إبان النهضة العربية التي سبقت الإسلام : خنافر بن التوأم الحميري وسواد بن قارب الدوسي . وكان من الكهان من ينسب إلى بلده أو قبيلته كقبولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم .

أما الكواهن من النساء فلإهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهي أقدمهن وليبراء الكاهنة وغيرهما .

وكان هناك أيضاً إلى جانب الكهنة فئة أخرى من المتنبيين
بالغيب وهم العرافون ، وقد كان منهم كثيرون في بلاد العرب
وذكرهم الشعراء في أشعارهم فقد قال الشاعر :

فقلت لعراف اليمامة داوئي فإنك إن داويتني لطيب

وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شقيان
فقالا : شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد هو الأبلق
الأسدي . وليس هناك اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة .
ولعل الذي عليه رأى الأغلبية هو أن العرافة لا تشمل الكشف
عن الغيب متى اتصل بالماضي أو الحاضر وإنما تقتصر على ما
ارتبط بالمستقبل وحده .

ومهما يكن من الأمر فإن العرب تسمى الكاهن عرافاً أيضاً
وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطيب . والعراف عند العرب
هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يستدل بها على
نتائجها ، أى هي الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث

الآتية بالمناسبة أو بالمشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا معلولين لأمر واحد، أو يكون ما في الحال علة لما في المستقبل كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة، وتتهم المرأة بالريية فيعرف من صاحبها، ونحو ذلك من الأمور.

ومن أمثلة العرافة أنه كان في زمن هارون الرشيد عراف أعمى، يستدل عن المستؤل عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال، فسرق من خزانة الخليفة أشياء، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال، فأمر العراف يده على البساط فوجد نوى تمر، فقال إن المستؤل عنه در وياقوت وزمرد في سفظ... فسأل الرشيد عن مكانه فقال العراف إنه في بر، فوجدوه كذلك...!! وسئل العراف في ذلك، فقال وجدت نوى تمر، وطلع النخلة أبيض وهو كالدر، ثم يكون بساً وهو أخضر، وهو لون الزمرد، ثم يكون رطباً وهو أحمر، وهو لون الياقوت!! فلما سألتهم عن مكان المسروق، سمعت صوت دلو فعرفت أنه في بر. فاستحسن الرشيد فراسته وأعطاه مالا جزيلاً.

ويدخل في باب التنبؤ بالغيب القائل والطيرة والعيافة وكلها

أشياء ترى إلى الكشف عن حوادث المستقبل استناداً على كلام يسمع من الغير اتفاقاً ، أو استناداً على أصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفواً ، وقد جرى هذا في غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحفاظ والمثنوى ونحوهما .

والفأل أمر يدعو إلى الإقدام بعكس الطيرة فإنها تدعو إلى التشاؤم والإحجام . أما العياقة فهي زجر الطيور أي التحدث بالغيب عند سروح طائر أو حيوان . وكان العرب يزجرون الطير أو الحيوان أي يصيحون به أو يرمونه بحجر فإن ولاهم في طيره ميامنه سموه سانحاً وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسره سموه بارحاً وتشاءموا منه فالسانح مرجو عند العرب والبارح هو المخوف ، وإن كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح وأهل الهائم بالضد من ذلك ..

وكان العرب في الجاهلية يكثرون من التزجر ثم شاع الفأل بعد ذلك في الإسلام ، وقد نهى النبي عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولا هامة ولا سفر » وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل . قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً يقول : يا سالم فقال لأصحابه سلمنا ، ولما دخلوها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا .

وقد عرف عن عمر بن الخطاب أنه كان من الذين يجعلون من الألفاظ التي تنال عقواً موضع تفاؤل أو تشاؤم، فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال : قريب فسأله عن أبيه فقال : ظفر فقال عمر متفائلاً ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وللعرب قصص وأخبار طويلة في الفأل والطيرة والعيافة؛ من ذلك ما حكاه المدائني قال : خرج رجل من لخب— ولم عيافة— في حاجة له ومعه سقاء من لبن ، فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرب ، فإذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى ، فلما أجهدته العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم في الثالثة نعب الغراب وتمرغ بالتراب ؛ فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخم ، ثم مضى فإذا غراب على سدة فصاح به فوق على سلمة فصاح به فوق على شجرة فانهى إليه فإذا تحت الشجرة كثر فلما رجع إلى أبيه قال له : ما صهت ؟ قال سرت صدر يوى ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب قال : أثره وإلا لست بأبني قال : أثره ، ثم أنخته لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال : أثره وإلا فلست بأبني قال : أثره ، ثم أنخته لأشرب فنعب الغراب وتمرغ في التراب قال : اضرب

السقاء وإلا قلت بابني قال : فقلت فإذا أسود ضخم ، قال :
ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غراباً واقفاً على سدرة ، قال : أطره وإلا
قلت بابني قال : أطره ثم وقع على سلعة . قال أطره وإلا
قلت بابني ، قال : أطره فوقع على شجرة قال : أخبرني بما
وحدث فأخبره . . .

وذكر التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة عن أبي الحسين
قال : اجترت أنا وأبو طاهر بن نصر القاضي بشارع القاضي ،
نقصد دار قاضي القضاة أبي الحسين في علة التي مات فيها
لنعوده فإذا بثلاثة من الأعراب ركبان فشال أحدهم رأسه وقد
سمع غراباً ينعب على حائط دار أبي الحسين قاضي القضاة فقال
لنفسين اللذين خلفه : إن هذا الغراب ليخبرني بموت صاحب
الدار : . فقال له الآخر : أجل إنه يموت بعد ثلاثة أيام . فقال
الآخر : نعم ويدفن في داره . فقلت : أسمعت ما قالوا ؟ قال :
نعم هؤلاء أجهل قوم . وافترقنا فلما كان في ليلة اليوم الرابع
سحراً ارتفعت الصبيحة بموت قاضي القضاة أبي الحسين ، فذكرت
قول الأعرابي وعجبت وحضرنا جنازته ودفن في داره . فقلت لأبي
طاهر رأيت أعجب من وقوع مقالة الأعرابي بعينها إيش هذا ؟ .
فقال : لا والله ما أدري ولكن تعال حتى نسأل عنهم ونقصدهم

ونستخير منهم من أين لهم ذلك . فقال : كنا أياماً نسأل
عنه وعن حلتهم من البلد فلانخير ، إلى أن أخبرونا أنهم نزول
حلة من بني أسد بباب حرب فقصدها هم ، فقلنا : هل فيكم من
ييسر الزجر ؟ فقالوا : أجل ثلاثة إخوة في آخر الحى يعرفون
ببني القائف ، ودلونا على أخيهم فجئنا فصادفنا أصحابنا
بأعيانهم ولم يعرفونا فأخبرناهم بما سمعناه منهم وسألناهم عنه
فقالوا : إنا وغيرنا نعرف نعيماً للغراب بعينه لا يتعبه في موضع إلا
مات ساكنه مجرياً على قديم السنين في البوادي لا يخطئون ، ورأينا
ذلك الغراب نعب ذلك النعب الذى نعرفه . فقلنا للآخر : كيف
قلت إنه يموت بعد ثلاثة أيام ؟ قال : كان ينعب ثلاثاً متتابعات
ثم يسكت ثم ينعب قلنا على هذا فحكمت بذلك . فقلت للآخر
وكيف قلت إنه يدفن في داره ؟ قال : رأيت الغراب يحفر
الحائط بمنقاره ورجليه ويحشو على نفسه التراب فقلت إنه في داره .
وذكر عن كثير عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزة
بها ، فلقية أعرابي من نهد فقال : أين تريد ؟ قال : أريد عزة
بمصر ، قال : ما رأيت في وجهك قال : رأيت غراباً ساقطاً فوق
بانة يتنف ريشه فقال : ماتت عزة ! فأنهى ومضى فوافى مصر
والناس منصرفون من جنازتها فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة وبان فين من حبيب تعاشره
وقد اشتهر من بين العرب كثيرون في الزجر والعيافة كعراف
اليمامة والأبلى الأسدي والأجلح وعروة بن يزيد وغيرهم ممن لا
يحصى عدداً .

وكان هناك من بين العرب من أنكر الزجر ونحوه وذم من
اغتربه واعتملى أمره عليه منهم ضابي بن الحرث وقد قال في ذلك
وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحاً ولا عن ريثن يحيب
مذروب أمور لا تضيرك ضيرة وللقلب من مخشاهن وجيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
ومنها النابغة وقد روى أنه خرج هو وزباد بن ميار يريدان
الغزو فرأى زباد جرادة فقال : حرب ذات ألوان فرجع ومضى
النابغة . ولا رجع غانماً قال :

يلاحظ طيرة أبداً زياد لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحسايينا وباطله كثير
وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عنها : « ذاك شيء »

يحدثه أحدكم فلا يصدقه . . وقال شراح الحديث إنه ليس في
سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه وإنما هو تكلف
بتعاطي مالا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله
على مضمون معني فيه ، وطلب العلم من غير مظانة جهل من فاعله .
وإنه على الرغم من ذلك فقد بقيت من هذا بقايا في كثير
من المسلمين . ومن العيب أن بعض القبائل العربية في البجاهلية
كانت لا تزوج بناتها إلا لمن اتصف بصفات خاصة منها معرفته
للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم كانت من الصفات العلية .
وكانت عند العرب غير ما ذكرنا وسائل أخرى يتوسلون بها
إلى معرفة الغيب كالطرق بالحصي والحبوب من الحنطة والنوى
واللحط في الرمال . فكان الكاهن إذا سئل عن حادثة أخرج
حصيات قد أعدها عنده فيطرق بعضها ببعض فيأوح له حيث
ما يعلم به جواب السؤال . أما اللحط في الرمال فكان الكاهن يأمر
غلامه أن يخط خطوطاً على رمل أو تراب ويكون ذلك منه في
خفة وعجلة لا يتركها العلو لإحصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين
خطين وهو يقول : إني عيان . أسرعاً اليان ، فإن كان آخر ما
يبقى منها خطين فهو آية التجاح وإن كان قد بقي خط واحد فهو
علامة الخيبة والحزمان .

الفصل الرابع المنجمون والتنبؤ بالغيب

لم يكن للعرب في الجاهلية دراية بصناعة التنجيم، وظلوا على جهلهم بهذا العلم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض . ونستدل على ذلك أننا لا نجد في أشعار الجاهلية وأخبارها شيئاً يدل على علمهم بهذه الصناعة على وفرة ما جاء في هذه الأشعار والأخبار، من اشتغالهم بالكهانة والقيافة والزجر والطيرة وغير ذلك من أنواع النفاق والتشاؤم . على أن العرب الذين استقروا خارج الجزيرة العربية بعد أواسط القرن الأول قد قالوا بتأثير الكواكب في السعد والنحس على الأخلاق .

ومهما يكن من الأمر فقد شاعت النجامة منذ الماضي السحيق عند قدماء الشرقيين . ويعتبر الكلدان أساتذة العالم في علم النجوم فهم الذين وضعوا أسسه وأقاموا بنيانه، وقد ساعدتهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم فرصلوا الكواكب وعينوا أماكنها ورسموا الأبراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الكسوف والخسوف بآلات فلكية منذ أكثر من أربعين قرناً خلت .

وقد أخذ عنهم هذا العلم اليونانيون والآشوريون والمصريون

وغيرهم من أهل الحضارات القديمة . وفي القرن الخامس قبل الميلاد أغار الفرس على الكلدان وفتحوا بلادهم واستبدلوا بهم فنقل ذلك على الكلدان فهاجر كثيرون منهم إلى البلاد المجاورة لهم وخاصة بلاد العرب التي كانت ملاذاً للمهاجرين من العراق ومصر والشام وذلك لامتناعها على الجيوش المغيرة بسبب فيافها القفر .

وكان في جملة المهاجرين إليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم فتعلم العرب منهم أحكام النجوم وأخذوا عنهم أسماءها كما عرفوا منهم مواقع الأبراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس . وعلى الجملة فإن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة .

ولم يكن للتنجيم شأن عند العرب إلا منذ قيام الدولة العباسية ، ولعل أول من اهتم بالتنجيم والنجوم هو أبو جعفر المنصور الذي أمر بترجمة الكثير من كتب هذا الفن . وقد سار خلفاؤه على منواله وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم بحيث كان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق . وكان الخلفاء يستشيرون المنجمين في كثير من الأمور الإدارية والسياسية ، فكانوا إذا خطر لهم أمر ذو شأن

وخافوا مغيبته استشاروا المنجمين، فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ؛ ثم يشيرون بموافقة هذا العمل أو علمه . ويعرف التنجيم عند العرب بأسماء مختلفة ، فهم يسمونه أحياناً علم أو صناعة النجوم ، وأحياناً علم أو صناعة الأحكام ، وسماء البعض علم النجامة . ويطلق على المشتغل بعلم النجوم أو التنجيم الإحكامي ، أو المنجم وإن كان اللفظ الأخير يطلق أيضاً على الفلكي .

وقد انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم . وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندي وإخوان الصفاء وفخر الدين الرازي .

ومن أقوال المنكرين لهذا العلم أنه ليس في معرفة الكائنات قبل وقوعها صلاح لإنسان من الناس ، لأن في ذلك تنغيصاً للعيش واستجلاباً للهم واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها . ويقول المؤيدون إن الإنسان إذا علم ما يكون من حادث في المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها لا بأن يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل سائر الناس ، ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار ، ولحر الصيف بأخذ السكن ، ولسني الغلاء بالأدخار ، ولواضع الفتن

بالهروب منها والابتعاد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم . ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا بالحوادث قبل كونها ، أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع .

ومن وجوه الإنكار أن التورى وهو أحد الأئمة المجتهدين وقد توفي عام ١٦١ للهجرة لقي المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإنخبار بأمور المحدثان ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشتري وأنا أرجو رب المشتري ، وأنت تغدو بالاستشارة ، وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا . . . ؟

ويذهب المؤيدون لهذا العلم أن من نظر فى هذا العلم وفكر فى سعة هذه الأفلاك وسرعة دورانها وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك والنظر إلى ما فيه وليس هذا ممكناً بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها استطاعت أن

تصعد في لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت
فلك القمر سائحة في مقر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة
تارة من الكون إلى الفساد وتارة من الفساد إلى الكون . والنظر في
هذا العلم يعين على الترقى إلى ما هو أشرف وأجل فهو ينه النفس
من نوم الغفلة ورقدة الجهالة .

وقال منكره إن أحكام هذا العلم وإن لم تبطل من أساسها
فإنها لا تصح بأسرها وليس هذا بالهين اليسير ، وصحتها وبطلانها
تتوقف على آثار الفلك . وقد يقتضى شكل الفلك في زمان ما ،
ألا يصح من أحكام النجوم شيء وإن غاص أهلها على وقائعها
وبلغوا إلى أعماقها .

ويرد على ذلك المؤيدون بقولهم إن الصناعة لا تبطل ولا تكون
أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطار في استدلالهم ،
فعلم النجوم وأدلة صحيحة وحتى ، وإن أخطأ أهله في بعض
استدلالهم أو أكثرها . لأن الله هو الذى نصب الأشخاص
الفلكية وأجراها مجاريها وقد جعله الله معجزة لإدريس النبي ،
وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالة صحيحة ، وقد يصيب الأطباء
ويخطئون في قضاياهم باستدلالهم التي نصبوها في أكثرها ،
فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، وهكذا أيضاً الفقهاء

والحكماء ، وأهل الفتوى في أحكام الدين من الحلال والحرام ،
 قد يصيرون أو يخطئون في قضاياهم واستدلالاتهم التي نصبها لهم
 الباري من آيات كتبه المتزلة . فخطئهم وزللهم لا يبطل العلم
 والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان
 بالإنسان لتقصه عن التمام .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف
 به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه
 في قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء . وقد
 ظل هذا النفوذ قائماً حتى القرن الثامن حين أتى عليه قيام الحضارة
 الغربية عامة ومذهب كوبر نيكوس المتوفى عام ١٥٤٣ بوجه
 خاص . ومن أجل هذا ظل قائماً في البلاد التي لم تغرها الحضارة
 الغربية ، وإن افتقد جلاله الذي كان له في العصور الوسطى .
 ومن الملاحظ أن قضية اليمن كانوا لا يزالون يزاولون صناعة أحكام
 النجوم حتى عهد قريب بل لا تزال له آثار باقية في تلك البلاد
 حتى اليوم .

ومهما يكن من الأمر فقد كان للمنجمين مكانة ممتازة في
 بلاط السلاطين والخلفاء . وقد جاء في كتاب وفيات الأعيان
 لابن خلكان أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ،

استدعى منجماً وقال له : هل ترى في علمك ملكاً يموت ؟ قال
المنجم نعم ولست هو ، لأن الذي يموت اسمه كليب ، قال
الحجاج إنه أنا والله ، بذلك سميتي أمي ، وكب وصيته .
وقد كان جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، يلقى
المنجمين من حضرته ويستشيرهم في أموره ، وكان نوبخت
الفارسي يصحب المنصور ولا ضعف عن خدمته طلب إليه هذا
إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسير له ولده أبا سهل .

ويذكر المؤرخون أن المنصور لما حج حجة التي توفي فيها ،
رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين هم ببناء
بغداد عام ١٤٥ هـ وضع أساس المدينة في وقت اختاره نوبخت
المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا
في حضرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزارى والطبرى من المنجمين .
ونستدل من هذا ومن روايات أخرى كثيرة أن بعض
الحكام والخلفاء كانوا يعتقدون في صحة أقوال المنجمين . وليس
من شك أن هذا الاعتقاد لم يتكون إلا بعد أن خيروا المنجمين
وتبينت صحة أقوالهم وتنبؤاتهم في أحوال كثيرة .

وإذا كان المنجمون قد صدقت نبوءاتهم في بعض الحالات
فلأن هناك روايات تدلنا على عدم تحقق نبوءاتهم في أكثر

الحالات؛ من ذلك اتفاقهم عند ما تم بناء مدينة بغداد عام ١٤٦ هـ أن طالعها يقضى بأنه لا يموت فيها خليفة . وشاع ذلك حتى هنا الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه :

يهنيك منها بلدة تقضى لنا أن الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها أن لا يرى فيها يموت إمام

وأكد هذا القول في نفوس الناس موت المنصور بطريق مكة ثم المهدي بما سبذان ثم الهادي بعساياذ ثم الرشيد بطوس . فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأتبار ظهر فساد قول المنجمين ولذلك قال الشاعر :

كذب المنجم في مقالته التي نطقت به كذباً على بغداد
قتل الأمين بها لعمرى يقتضى تكذيبهم في سائر الحساب
وقد مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغيرهم .

ومن ذلك اتفاق المنجمين عام ٣٥٣ هـ عند ما أراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة ، وكان قد سبق مولاه المعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة ، وأمره إذ دخلها أن يبنى بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة

ويكون بطالع الكوكب القاهر وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله . فجمع القائد جواهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه وأمر البنائين ألا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضعه وأمرهم أن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليها أرصاد أولئك الجماعة ، فوضعت الأساسات على ذلك في الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة إلى الكوكب القاهر ، واتفقوا كلهم بأن الوقت الذي بنيت فيه يقضى بدوام جدهم وسعادتهم ودولتهم ؛ وأن الدعوة لا تخرج فيها عن القاطمية وإن تداولتها الألسن العربية والعجمية . فلما ملكها أسد الدين شيركوه بن شادى ، ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قائمون بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف ، توهم الناس أن ما قال المنجمون من قبل حقاً لتبدل اللسان وحال الدعوة مستبقي . فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بني العباس انكشف الأمر وزال الالتباس وظهر كذب المنجمين حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس .

وقد وقف بعض علماء المسلمين من التنجيم موقفاً وسطاً فلا هو بالمؤمن به ولا هو بالمنكر له ، من ذلك ما حكاه التنوخي في

كتابه نشوار المحاضرة من أن أبا محمد عبد الله بن عباس
الرامهرمزي المتكلم أخبره قال : أردت الانصراف من عند أبي
على الجبائي — وهو من كبار المتكلمين — إلى بلدى فجئته مودعا
فقال لي : يا أبا محمد لا تخرج اليوم فإن المنجمين يقولون إن
من سافر في مثله غرق فأقم إلى يوم كذا وكذا فإنه محمود عندهم
فقلت : أيها الشيخ مع ما تعتقده في قولهم كيف تجيء بهذا ؟
فقال : يا أبا محمد لو أخبرنا مخبر ونحن في طريق أن فيه سبعا
أليس كان يجب في الحكمة علينا ألا نسلك ذلك الطريق إذا
قدرنا على سلوك غيره وإن كان ممن يجوز عليه الكذب ؟ قلت :
نعم . قال : فهذا مثله ، وقد يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادات
بأن تكون الكواكب إذا نزلت هذه المواضع حدث كذا والأخذ
بالحزم أولى . قال : فأخبرت خروجي إلى اليوم الذي قاله .

ولقد سبق أن ذكرنا أن علم التنجيم كان مزدهراً في العالم
القديم وخاصة عند البابليين والآشوريين وفي الهند ومصر والصين
واليونان وروما ، ولكنه تدهور حتى كاد يتلاشى في أوروبا بظهور
المسيحية . غير أن الفتح الإسلامي لأوروبا في القرنين التاسع
والعاشر قد أعاد لهذا العلم مكانته في القارة الأوروبية حتى أنه
كان يعتبر في عهد دانتى من أسبى العلوم وأنبأها . وكان هناك

منجم خاص لكل ملك أو أمير في أوروبا يستشير في كل أموره فلا يقدم على عمل إلا بعد أن يقرأ له المنجم الطالع . بل والأكثر من ذلك أن بعض البابوات أنفسهم كانوا من المشتغلين بالتنجيم نذكر منهم البابا سلفستر والبابا يوحنا العشرين ويوحنا الحادى والعشرين وجوليوس الثانى وكليمنت الثامن وغيرهم . ولقد تنبأ مارسيليو فيسينو Marsillio Ficino منجم دوق فلورنسه المعروف باسم لورنزو العظيم بأن واحداً من أولاد هذا الدوق — وهو جيوفانى ده مديسى — سوف يعتلى الكرسي البابوى . ولما اعتلى جيوفانى هذا الكرسي البابوى تحت اسم ليو العاشر أصبح راعياً للمنجمين ونصيراً لهم .

ونجد أن عالماً دينياً كبيراً وفيلسوفاً من أشهر فلاسفة العصور الوسطى وهو توماس الأكوينى يعلن أن الأجرام السماوية هي السبب في جميع أحداث هذا العالم الدنيوى .

والواقع أن كل واحد في العصور الوسطى كان يعتقد في التنجيم على الرغم من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المنجمين . إن المنجمين الأوربيين الأول من أمثال كوبرنيكوس ونيخوبراهه وكبلر ، بل إن إسحاق نيوتن مكتشف قانون الجاذبية كانوا جميعاً من المهتمين بدراسة « العلم القديم » أى التنجيم كما

كان يعرف في ذلك الوقت . ويقال إن إسحاق نيوتن عند ما التحق بجامعة كمبردج عام ١٦٦٠ - وكان عند ذلك في السابعة عشرة من عمره، سؤل عما يريد أن يدرسه بالجامعة فقال: أريد دراسة الرياضيات لأنني أرغب أن اشتغل بالتنجيم .

ولم يكن رجال الكنيسة أقل تعلقاً بالتنجيم من العلمانيين . فقد أصيب رئيس أساقفة كنيسة القديس اندروز بإنجلترا بمرض أعيا نطس الأطباء الإنجليز فأرسل في طلب المعجم الرياضى المشهور جيروم كاردان من أوروبا عام ١٥٥٢ . وقد قرأ هذا المعجم طالع الأسقف وكشف عن مرضه وعالجه حتى برىء . ولما انتهى المعجم من مهمته قال لرئيس الأساقفة : « لقد استطعت أن أيرثك من علتك ولكنى لا أستطيع أن أغير من مصيرك ، ولأن أحول دون رأسك وحبل المشتقة » . وحدث بعد ذلك بثمانية عشر عاماً أن شق هذا الأسقف بأمر من لجنة التحقيق التى أنشأتها ماري كوين الوصية على عرش اسكتلندا .

وعلى الرغم من ذلك فقد وقع المنجمون في أخطاء عديدة جسيمة منها تلك التنبؤات التى جعلت أهل أوروبا يبنون الفلك استعداداً للهرب من الطوفان الجليد الذى سوف يحل بالعالم كما قال المنجمون . وذهب المنجمون أيضاً في العصور الوسطى إلى أن

نهاية العالم سوف تكون في عام ١٥٨٤ وأكد هذا القول ليوفتيوس Leovituis منجم بلاط الأمير هنري أمير البلاينات ؛ الذي قال إن الكواكب تنبئ بأن العالم سيفنى في عام ١٥٨٤ . بل إن كبلر كبير المنجمين والفلكيين في عصره قرأ الطالع للجنرال ولشتين عام ١٦٠٩ وأنبأه بأنه سوف يعيش حتى يبلغ السبعين من عمره ولكن ولشتين قد مات قبل ذلك بنحو تسعة عشر عاماً . ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد تحققت ، مثال ذلك ما ذكره المنجمون عن ذلك الطوفان الحربي الذي اجتتاح العالم في القرن الثالث عشر . ففي ذلك القرن ألقى زعيم إحدى القبائل الرجل التي تقطن السمويب الشامعة الواقعة إلى الشمال والغرب من الصين الرعب في قلوب الناس . فقد اجتتاح هذا الزعيم بخفة وسرعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم بلاد آسيا وقهر دوق روسيا الأكبر وقضى على ملكه وعاث في بلاده فساداً . كان اسم هذا الزعيم « چنكيزخان » ولم يكن أحد في العالم في ذلك الوقت يعرف شيئاً عن هذا الزعيم الذي انتفض على العالم كالصاعقة أو القضاء المحتوم . لقد كانت دعوات الناس في صلاتهم في ذلك الوقت « اللهم نجنا من غارات أهل الشمال » . لقد كان هذا الفاتح الجبار في الواحد والأربعين من عمره عند ما

خرج في حملته التاريخية الهائلة وكانت إمبراطوريته التي كونها
بحد السيف تمتد من المحيط الهادى حتى نهر الدنيبر .

ولعل القارئ يسأل وما صلة ذلك بالتنبؤ بالغيب الذى هو
موضوع هذا الكتاب؟ إن لذلك صلة وثيقة كما سندكر فيما يلى :
فى مستهل عام ١١٧٩ وجد كثيرون من المنجمين أن الطوالع
تدل على أن كارثة هائلة سوف تحل بالعالم وبالإنسانية ورأوا
أن من واجبهم أن ينبهوا العالم إلى هذا الخطر الذى على وشك
الحدوث ، فكان سكان أوربا أجمعين ينظرون إلى المستقبل
نظرة ملؤها الخوف والوجل ، لأن المنجمين ذكروا أن هذه الكارثة
سوف تحل عام ١١٨٦ . ولم يكن هذا الخوف مقصوراً على
أهل أوربا وحدهم بل كان شائعاً فى جهات أخرى غير أوربا .
قالشاعر والمنجم الفارسى المعروف « أنورى » قد تنبأ بعاصفة
كاسحة فى السادس عشر من شهر سبتمبر عام ١١٨٦ ،
لأن اجتماع خمسة كواكب فى برج الميزان فى تلك الليلة هو الذى
دفع أنورى إلى التنبؤ بهذه النبوءة على الرغم من أن الليلة التى قال
عنها أنورى أن عاصفة كاسحة قد حدثت فيها كانت ليلة هادئة .
وقد سخر أنورى من نفسه لهذا القول أو التنبؤ ولكن تبين
بعد ذلك أن چنكيزخان زعيم التتر الذين اجتاحتهم العالم قد ولد فى

تلك الليلة التي قال عنها أنورى وعلى ذلك تكون نبوءة أنورى صحيحة وإن لم يفهم مدلول هذه العاصفة الكاسحة في حياته . ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد صدقت وتحققت : من ذلك أن يكون دلا ميراندولا وهو من أشهر علماء عصر النهضة في إيطاليا وكان من المتعصبين ضد التنجيم والمنجمين حتى نعته البعض بأنه قمة المنجمين ، قد تنبأ له ثلاثة من المنجمين أنه سيموت وهو في الثالثة والثلاثين من عمره . وكان من أمر هذه النبوءة أن تحققت بالضبط كما قال هؤلاء المنجمون إذ توفي بيكو في اليوم بل وفي الساعة التي تنبأ بها ، فكان ذلك أكبر نصر للمنجمين الذين حاربهم يكو طوال حياته . وهناك منجم آخر يدعى پير دلى Pierre d'Ailly قد تنبأ بالفترة العصيبة التي سوف تمر بها فرنسا ابتداء من عام ١٧٨٩ وكان ذلك قبل حدوثها بأربعمئة سنة .

وقرأ أحد المنجمين الإيطاليين ويدعى جوليانو دل كارمن الطالع للدوق السندرو ده مديسى أول دوق لفلورنسة ، فوجد أن هذا الدوق سوف يُغتال وأن الذى سيغتاله هو ابن عمه لورنزايشو . ورأى المنجم أن من واجبه أن يخبر الدوق بذلك على الفور ، ولكن الدوق استخف بقول المنجم وابتسم لهذه المخاوف التي

تساوره فقد كان أهل فلورنسة أجمعين يحبون اللوق ويلتصون حوله . ورأى أحد حراس اللوق أيضاً في منامه أن اللوق قد اغتيل على يد رجل ضعيف قمبيء حتى إن صورته قد علقته في مخيلته . وفي الصباح قص الهندي هذا الحلم على سيده وفي أثناء ذلك دخل لورنزايشو على اللوق فصاح الهندي ، هذا هو الرجل الذي شاهدته في منامي فما كان من اللوق إلا أن صرف الهندي بعد أن أنبه على هذا القول . وفي نفس ذلك اليوم قتل لورنزايشو اللوق أثناء صعوده درجات الكنيسة .

وفي عام ١٤٦٠ نشر جون كابسترانو كتاباً بعنوان « علم الفلك » ذكر فيه هذه النبوءة التالية وقال إنها ستحدث عام ١٦٢٢ :

« إن أسد نصف الليل الأكبر سوف يخرج من عرينه ولكنه لن يرجع ثانية إليه وإن يكن قد قام بما فرض عليه . سوف يقول كثيرون من يعدون أنفسهم من الذين أوتوا الحكمة « إنه لا يستطيع ذلك » ويقول آخرون « ألم نخبركم بذلك مقدماً ؟ أما الذين سوف يقاسون أكثر من غيرهم فسيتجاهلون الأمر وينظرون إلى هذا الأسد على اعتبار أنه ديك لا يخشاه أي صقر . ومهما يكن من الأمر فإن هذا الأسد سوف يزأر في عام ١٦٢٢ »

بصوت عال بحيث تهتز له الأرض ويفزع منه جميع البشر .
وقد تحققت هذه النبوة في عام ١٦٣٢ إذ خرج في
ذلك العام جوستاف أدولف أسد السويد وكان له الشأن الأكبر في
حرب الثلاثين سنة . وهو المدافع الأكبر عن المذهب البروتستانتي
وأوقع الهزيمة بكل من الجنرال تيلي Tilly والجنرال ولنتشتين
Wallenstein وهما من أشهر قوادآل هابسبورج المدافعين عن
المذهب الكاثوليكي . ولم تكن السويد ولا أية دولة أخرى من الدول
الإسكندنافية لها أى شأن يذكر في التاريخ الأوربي في عام
١٤٦٠ وهو العام الذى نشر فيه كابسترانو نبوءته المذكورة .
والمعروف أيضاً أن تيخوبراهة Tycho Brahe (١٥٤٦ -
١٦٠١) أعظم الفلكيين في القرن السادس عشر كان يعتبر
كذلك من أعظم المنجمين ، فقد كرس حياته للتنجيم وهو
لا يزال في الرابعة عشرة من عمره . وكان ينظر إلى الفلك والتنجيم
على اعتبار أنهما شئ واحد وكان هذا هو رأى الكثيرين
من علماء ذلك العصر . لقد اضطرت تيخو إلى دراسة التنجيم
سراً لأن أبواه كانا يرغبان في أن يصبح ولدهما محامياً . وتمكن
تيخو في عام ١٥٧٧ - وكان لا يزال شاباً من أن يضحده
نظرية أرسطو التي كانت متحكمة في العقول زماناً طويلاً ومؤداها

أن السموات محدودة ومحاطة بدائرة صلبة . وقد وصل إلى ذلك بدراسة المذنب الذى ظهر فى ذلك العام . بل لقد كان تىخو فى السابعة عشرة من عمره فقط عندما تنبأ فى عام ١٥٦٣ بالطاعون الكبير الذى اجتاح أوروبا عام ١٦٦٥ ، وقد قال السير دافيد بروستر David Brewster وهو من أعظم علماء القرن التاسع عشر أن تىخو لا يتفوق عليه أحد من الفلكيين سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث .

لقد تنبأ تىخو هذا أيضاً بمجىء جوستاف أدولف وذلك من ملاحظته لنجم جديد ظهر فى برج ذات الكرسي Cassiopeia عام ١٥٧٢ . فقد ذكر أن أميراً شجاعاً على وشك الظهور وسوف تبهر جيوشه ألمانيا بأسرها ولكنه سوف يختفى هو نفسه عام ١٦٣٢ . والمعروف أن جوستاف أدولف لم يولد إلا عام ١٥٩٤ وقد قتل عام ١٦٣٢ فى موقعة لوتزن .

وكان فى بلاط الملكة إليصابات ملكة إنجلترا منجم يدعى جون دى John Dee وفى ذات يوم استدعى هذا المنجم على عجل لأن جلالة الملكة كانت تريد أن تستوضح منه عن بعض الأمور التى تشغل بالها . لقد ذكر منجم شاب يدعى جولد ماير أن جوستاف أدولف سوف يفقد حياته فى

لوتزن عام ١٦٣٢ . وكانت الملكة إليصابات هي وحاشيتها
يهما موت جوستاف هذا الذى أصبح خطراً يهدد ملكها
ولكنها لم تكن تتق فى قول هذا المنجم الشاب . ولكن لما توفى
جوستاف فعلا فى عام ١٦٣٢ فى لوتزن أصبح هذا الشاب منجماً
شهيراً وكافأه الملك فرديناند الثالث وقربه إليه .

فليس بعجيب إذاً أن نرى الملوك والأمراء فى أوروبا فى
ذلك العهد يحتفظون فى بلاطهم بالمنجمين ويحيطونهم بمظاهر
التكريم والتبجيل والتعظيم ويستشيرونهم فى كل أمر هام .
فتجد أن رودلف الثانى إمبراطور النمسا كان شديد الرغبة
فى أن يكون تينخو براهة منجمه الرسمى لذلك استدعاه إلى بلاطه
ومنحه راتباً ضخماً وأرضاً يستغلها وايتنى له مرصداً خاصاً
زوده بجميع آلات الرصد . وكان رودلف هذا يزعم بأن لديه
الجداول الرودلفية وهى الجداول الفلكية التى وضعها تينخو
وأصبحت تحمل اسم رودلف وكان الفلكيون يستعملونها بكثرة
فى ذلك الوقت . وقد سمح رودلف لمنجمه تينخو أن يستعين
بكبلر Kepler فى أبحاثه الفلكية وهو الرجل الذى ذاع صيته
فى الفلك بعد ذلك حتى كادت شهرته تغطى على شهرة تينخو براهة .
وجون كبلر هذا من أعظم الفلكيين الذين ظهوروا فى العالم

كما كان أيضاً من أعظم المنجمين . ولقد تنبأ كبلر هذا بمقتل
ولنشتين ولكنه أخطأ في تحديد التاريخ بالضبط . وهو كفلكى
قد وضع القوانين الفلكية التي تنسب إليه وهي التي مكنت
بعد ذلك السير إسحاق نيوتن من الكشف عن قانون الجاذبية .
على أن هذا الفلكى قلما كان يخطئ كمنجم في تنبؤاته . فقد
ذكر في تقويمه الفلكى لعام ١٦١٩ أن الإمبراطور متياس
سوف يموت في شهر مارس من ذلك العام . وقد توفي بالفعل
هذا الإمبراطور في العشرين من شهر مارس سنة ١٦١٩ .
وكان كبلر إذا قرأ طالع فرد من الأفراد فكأنه يرسم له
صورة واضحة دقيقة وكأنها بريشة المصور العالمى ومبرانت .
لقد قرأ كبلر طالع دوقة فريدلاند (زوجة ولنشتين) ولم يكن
قد رأى هذه السيدة من قبل ولكنه ذكر وصفاً دقيقاً لمنظر
هذه الدوقة ولصفاتها المميزة لها ولزاجها الخاص كل ذلك
بشكل دقيق للغاية، الأمر الذى دفع ولنشتين أن يتخذ من
كبلر منجماً خاصاً له . وكان معنى ذلك في تلك الأيام أن
يأخذ هذا المنجم راتباً ضخماً ويقطن في منزل أنيق ويستمتع
بوافر العناية والتكريم . على أن هذا الحظ الذى واثى كبلر قد
جاءه متأخراً لأن كبلر قد توفي بعد ذلك بستين .

لقد كان الأمراء والحكام في أوروبا يطمحون في أن يكون لكل واحد منهم منجم مثل كبلر إذ ما معنى الحياة في نظرهم دون منجم ماهر ينبئهم بما ستأتي به الأيام من أحداث ؟ .
ففي عام ١٦٢٠ تقدم السير هنري واتون سفير جيمس الأول ملك إنجلترا إلى كبلر بعروض سخية ولكنه أنفق في سفارته ولم ينجح في إغراء هذا الفلكي الشهير على الذهاب إلى إنجلترا إذ أثر كبلر العوز على أن يعيش في بيثة غريبة عليه في كل شيء .

على أن إنجلترا كانت في الوقت الذي رفض فيه كبلر أن يذهب إلى هناك تمهد لمنجمها الخاص . فإنه في نفس العام الذي قابل فيه السير هنري واتون المنجم كبلر وعرض عليه الذهاب إلى لندن - وفد على هذه المدينة شاب قوى البنية من أهل الريف . وكان في ذلك الوقت في الثامنة عشرة من عمره على حظ قليل من العلم وعلى دراية باللغتين اليونانية واللاتينية وقد جاء إلى لندن معياً وراء الرزق . واشتغل هذا الشاب في بداية أمره في بعض المهن الحقةرة ثم جرت الصدقة بعد ذلك إلى الاتصال بالدكتور سيمون فورمان Simon Forman وكان من المشتغلين بالعلوم الخفية فحبب هذا العالم للشاب وكان يدعى ليللي Lilly

دراسة التنجيم ، وتزوج هذا الشاب بعد وفاة أستاذه من أرملته وكانت على حظ من الثراء فتمكن من دراسة التنجيم على يد بعض المشتغلين بهذا العلم .

وقد أخذ هذا الشاب منذ عام ١٦٤١ ينشر تنبؤاته التي قابلها المثقفون في ذلك الوقت بالضحك والسخرية ولكن كثيراً من عليه القوم الإنجليز كانوا يذكرون بعد ذلك تنبؤاته بالإعجاب ومن بينهم شارل الأول وكروموويل ، بل كان ليللى هذا في وقت من الأوقات يعتبر المنجم الخاص لكروموويل .

ومن الأسباب التي أدت إلى شهرة ليللى هذا تنبؤه بالطاعون الأعظم وبحريق لندن الشهير . ومن المعروف أن البرلمان الإنجليزي عند ما أخذ يبحث عن أسباب حريق لندن الهائل الذي حدث عام ١٦٦٦ استدعت اللجنة القائمة بهذا البحث ليللى وسألته ما إذا كان تنبؤه هذا قائماً على علمه بمؤامرة كانت تدبر لهذا العمل أم قائماً على حسابات فلكية . وقد أقنع ليللى اللجنة أنه تنبؤه هذا كان قائماً على حسابات فلكية دون غير . وأخذ ليللى هذا يصدر التقاويم الفلكية التي نال بسببها شهرة فائقة وحصل من وراثتها على ثروة كبيرة .

الفصل الخامس التنبؤ بالغيب في أوروبا

مر وقت في العصور الوسطى كان فيه أهل أوروبا وخاصة البلاد التي تعرف الآن باسم ألمانيا والنمسا يعملون يجد ونشاط وفي أيديهم القروس والمعاول في بناء الفلك على نحو ما كان يصنع نوح لكي يعتصموا بها من الهلاك غرقاً . كان الناس يسرعون في بناء تلك السفن وقلوبهم مملوءة فرحاً لأن واحداً من العرافين المشتغلين بعلم التنجيم ويدعى جوهان ستوفلر Johann Stöffler قد أعلن بناء على حساباته التي لا يتطرق إليها الخطأ أن فيضاناً آخر على مثال فيضان نوح سوف يحتاج أوروبا بأمرها ويهلك أهلها أجمعين ، فلم يكن أمام الناس إلا أن يبحثوا عن وسيلة تعصمهم من هذا القضاء المحقق . غير أن هذا الفيضان المزعوم لم يتحقق ، بل قام عراف آخر أكثر شهرة من العراف الأول هو جورج تنستتر Tannenstetter من أهل فيينا وأخذ يفند ادعاءات ستوفلر وأعلن أن ليس هناك ما يدل على حدوث مثل هذا الفيضان وأن نبوءة ستوفلر هذا كاذبة .

كان ذلك في القرن السادس عشر ، أما اليوم فلو قام منجم أو عراف وأعلن مثل هذه النبوءة الخاصة بنهاية العالم لقابلها الناس بالسخرية والابتسام وقد لا يحفل بها أحد البتة إلا ضعاف القلوب والعقول ، أما في العصور الوسطى فلم تكن مثل هذه النبوءة تمر دون أن تحدث الفزع والخلع في قلوب الناس لأنه كانت هناك فكرة شائعة متأصلة في النفوس وهي أن الدنيا قد قاربت نهايتها بل إن هذه الفكرة كانت في القرن العاشر الميلادي جزءاً من العقيدة العامة التي يعتنقها أهل أوروبا. لقد كان الناس في ذلك العصر يتطلعون إلى نهاية العالم كما نتطلع نحن أبناء القرن العشرين إلى السماء انتظاراً للدلائل الغيب بعد فترة من الجفاف . وقد ذكر معظم العرافين عام ٩٩٩ على أنه التاريخ الذي سوف تحدث فيه هذه الطامة الكبرى .

كان الناس يتوقعون أن يكون يوم الحشر في بيت المقدس لذلك كان عدد الحجاج المتجهين ناحية المشرق في عام ٩٩٩ من الكثرة بحيث كانوا يشبهون بجيش عزم هائم على وجهه . لقد باع معظم هؤلاء الحجاج جميع ما يملكون من حطام الدنيا قبل أن يغادروا أوروبا في طريقهم إلى بيت المقدس وأخذوا يعيشون على دخل الأراضي المقدسة .

لقد أهمل الناس تشييد المباني العامة أو إصلاحها إذ ما الداعي إلى ذلك ونهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وكانت النتيجة أن أصاب التلف والدمار الكثير من هذه المنشآت العامة بل وتهدم أغلبها ولم ينبج من هذا المصير المقيع الكنائس وبيوت العبادة .

لقد اتجه إلى بيت المقدس الأمراء والفرمان ورجال الدين والعبيد والجميع يسرون صحبة واحدة ومعهم أولادهم وأزواجهم ينشدون الأناشيد والتراتيم وهم في طريقهم وعيونهم متجهة إلى السماء في خوف وتضرع ووجل يتوقعون في كل لحظة أن تفرج السماء ويهبط منها السيد المسيح .

ولما لم تحن نهاية العالم في القرن العاشر توقع الناس من جديد أنها سوف تحين في القرن الحادى عشر أو الثانى عشر أو بعد ذلك إذ لا بد أنها آتية لا محالة. وأصبح تعلق الناس بهذه الساعة الأخيرة هو الأمل الثانى لهم بعد التعلق بالحياة . لقد أخذ المنجمون في وقت من الأوقات يرسلون الأنبياء إلى جميع البلاد معلنين أن نهاية العالم وفناء الجنس البشرى سوف يكون في عام ١١٨٦ . غير أن هذا الحادث الجلل لم يقع وصار يؤجل من وقت لآخر وكأنه تمثيلية كبرى تؤجل الحين بعد الحين .

إن العرافين في الوقت الحاضر ومفسري النبوءات الكثيرة الواردة في الكتاب المقدس أو التي ينطوي عليها سر الهرم الأكبر يقولون إن « نهاية الزمن » تعني أنه ستكون هناك تغيرات كبيرة جوهرية في العالم دون أن يعني هذا نهاية العالم إنما يعني عصراً جديداً وليس فناء العالم وكل ما فيه .

وقد ظهر قبل العهد المسيحي مجموعات من كتب التنبؤات تناولتها أيدي الصفوة المثقفة من اليهود ذوي العقول المستنيرة الذين نهلوا من الثقافة اليونانية . وكانت هذه الكتب تنبئُ بمجيء عصر سوف تسود فيه العدالة بين الناس ويعيش الناس في سلام ووثام متحابين متعاونين ، وأن الأرض سوف تخرج طيبتها من فاكهة مختلف ألوانها وأن المدن سوف تعج بالطيبين الأخيار من الناس . وسوف تخلو الأرض من الزلازل والحروب والمجاعات .

وفي صدر العصر المسيحي أضاف المسيحيون إلى هذه التنبؤات التي تبشر بالمدينة الفاضلة تنبؤات أخرى تشير إلى أن العالم سوف يمر بعصر ذهبي تسوده المحبة والرخاء والسلام . وكان الرومان من ناحية أخرى لا يحفلون بهذه التنبؤات المختلفة وفي عهدهم ظهرت نبوءات أخرى تنبئُ بزوال

الإمبراطورية الرومانية ولكنهم سخرُوا من هذه التنبؤات لأنهم كانوا يعتقدون أن الإمبراطورية الرومانية عبارة عن كيان أو نظام أبدي لا يمكن أن يزول ولذلك نجدهم يحفظون هذه المجموعات التنبؤية في الكايتول بعيدة عن متناول أيدي الناس بل إنهم سنوا من القوانين في عام ٤٠٥ للميلاد ما تفرض الموت على من يعرف عنه أنه اطلع على هذه الكتب المليئة بأنخبار الغيب. ولذلك اتخذت التنبؤات بعد ذلك في أوروبا وجهة أخرى منذ كرها فيما يلي .

إن من الأسباب التي جعلت التنبؤات في العصور الوسطى تتسم بهذه السمة المحزنة المفزعة أن الأشخاص الذين كانوا يقرأون الكتب المقدسة كانوا يقرأونها قراءة حرفية في لغاتها القديمة كما أنه كانت تراود أذهانهم فكرة مجيء المسيح الدجال والمسيح الدجال يعد سبباً آخر من أسباب هذا الفزع المزمع العام الذي كان يهدد أهل العصور الوسطى .

لم يكن هناك خبر عن موعد ظهور هذا المسيح الدجال غير أن تقرأ من كبار العالمين يواطن الأمور اتفقوا على أن المسيح الدجال على وشك الظهور . ونذكر أنه في عام ٣٨٠ أعلن مارتن Martin أسقف تورز بنهب ووقار أن المسيح

الدجال يعيش بالفعل وإن كان لا يزال صبيًا . وفي عام ١٠٨٠ أى فى الوقت الذى كان فيه أهل أوربا يعتقدون فى زوال العالم — ذكر أسقف فلورنسه مؤكداً أن المسيح الدجال قد ولد . وبعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون أى فى عام ١٤١٢ رأى أحد كبار رجال الوعظ المسيحيين أن من واجبه أن يكتب للبأبا بنديكت Benedict الثالث عشر منبئاً أن المسيح الدجال قد بلغ بالفعل التاسعة من عمره . وقال كثيرون غير هؤلاء إنهم رأوا الرؤى التى تشير إلى قرب ظهور المسيح الدجال وإنه أصبح من الضروري أن يعد المؤمنون أنفسهم لهذا القتال الرهيب الذى على وشك الوقوع .

وتحوى بعض المؤلفات القديمة سلسلة من الصور تمثل ولادة وحياة وموت رجل الشر (المسيح الدجال) . بل إننا نجد فى عهد متأخر أى فى منتصف القرن التاسع عشر أن العرافة جوزفين لامرتين — وهى عرافة مشهورة من أهل الاورين بفرنسا — تتكهن بأن المسيح الدجال سوف يولد فى عام ١٩٠٠ ولو كانت نبوءة هذه العرافة صحيحة لكان المسيح الدجال الآن يملأ الأرض جوراً وظلماً وظلاماً .

ومهما يكن من الأمر فإنه فى تلك العصور الوسطى قد

اختلفت النبوءات الصادقة بالأخرى الكاذبة حتى كان من الصعب التفرقة بينها . والواقع أن شعور الناس بالإثم والخطيئة والانحلال قد انعكس في صورة التنبؤ بالعقاب الذي لا مفر منه والنوازل التي سوف تحل بالبشر .

وكان هناك إلى جانب هذه النبوءات العامة التي كان يعتقد فيها المسيحيون بوجه عام نبوءات خاصة بكل دولة من الدول الأوروبية .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية التي ظلت على قيد الوجود حتى سقوط عاصمتها القسطنطينية في يد الترك عام ١٤٥٣ غنية بصفة خاصة بهذه النبوءات .

في القرن الحادي عشر انتشرت في القسطنطينية بعض النبوءات التي تنسب إلى متوديوس Methodius أسقف بطراء الذي استشهد في أوائل القرن الرابع إبان حكم الإمبراطور ديوقلتيان . ففي ذلك العهد البعيد ظهرت بعض التنبؤات تقول إن الإسماعيليين أو العرب سوف يقهرون كثيراً من البلاد المسيحية عقاباً لرجال الدين والعلمانيين على السواء على ما ارتكبهوه من خطايا وآثام . وقد ترددت على الألسن هذه النبوءات طوال قرون عدة وتحققت بالفعل بعد ذلك بأربعة قرون . وكانت

هناك نبوءة أخرى تذكر أن الترك سوف يروون ظمأ جيادهم من مياه نهر الرين . والذي حدث بعد ذلك أن المغول بقيادة جنكيز خان قد اجتاحتها آسية وأوروبا في القرن الثالث عشر وسقوا جيادهم من عدة أنهار أوربية وإن لم يكن منها نهر الرين على التحقيق .

وتنبأ الإمبراطور الفيلسوف ليو Leo في القرن التاسع بفتح المسلمين للإمبراطورية البيزنطية وقد تحققت هذه النبوءة بالفعل بعد ذلك بستة قرون تقريباً . وقد عثر قبيل استيلاء الترك على الدولة البيزنطية في دير بالقسطنطينية على لوحة تنسب إلى الإمبراطور ليو مييناً بها في تعاقب صحيح أسماء الأباطرة والبطارقة في هذه الدولة طوال ستة قرون انتهت بزوال هذه الإمبراطورية . ويستدل من هذه اللوحة أيضاً أن قسطنطين سوف يكون آخر أباطرة هذه الدولة . وبالفعل قد تحققت هذه النبوءة وكان الإمبراطور قسطنطين بيلولوجوس الذي لقي حتفه عند ما استولى الترك على مدينة القسطنطينية آخر أباطرة بيزنطة .

والواقع أن النبوءات لم تختفي قط من هذه الإمبراطورية البيزنطية . لقد كانت هناك تنبؤات كثيرة عن حكم الأباطرة ومستقبل الإمبراطورية منها تلك النبوءة التي ظهرت قبل عام

١٤٥٣ بقليل وجاء فيها أن العدو سوف ينقض على المدينة ويقضي على عظمته وبهاؤها ويدنس معابدها ونسائها ويجعل مبانيها طعمة للتيран وذلك بسبب الدم الذي يسفك والجرائم التي ترتكب في بيزنطة . وقد تحقق ذلك كله إبان حصار القسطنطينية ثم وقوعها في أيدي الترك .

ومن حسن طالع الإمبراطور الفيلسوف ليو أن معظم نبوءاته قد ظهرت وعرف بها الناس بعد وفاته بزمان طويل ولذلك لم يكن هدفاً لتلك المضايقات والاعتداءات التي كثيراً ما كانت تصيب هؤلاء المتنبيين خصوصاً إذا تنبأوا بأشياء لم تصادف هوى في نفوس الناس . وبهذه المناسبة نذكر حالة نبوءة من النبوءات كان جزاء قائلها الموت حرقاً .

حدث في ربيع عام ١٥١٧ أن ظهر في روما - وكانت الأمور فيها تسير على أحسن ما يكون - راهب فقير أخذ يجوب شوارع هذه المدينة العظيمة صائحاً : « الويل الويل لهذه المدينة التي سوف تقع فريسة في أيدي الأمم فيما وراء الألب لهذه الخطايا المنكرة التي يرتكبها البابوات والأساقفة . » لقد كانت روما في ذلك الوقت مدينة مزدهرة يعمها الرخاء والأمن والسلام إذ لم تكن قد تعرضت لأية غزوة خارجية منذ

أكثر من خمسة قرون . وكانت في ذلك الوقت تزدهم بالسكان والتجار والكهنة وجنود البابا والحراس والأساقفة . وكان البابا كليمنت الثامن يترجع على عرش البابوية في قصره المنيف والعالم كله في أمن وسلام . وها هو ، راهب خرب العقل كانت له الجرأة أن يسير في طرقات هذه المدينة العظيمة وينادى بالويل والثبور ويتنبأ بدمارها والقضاء عليها . وما أن سمع البابا بنجر هذا الراهب حتى قبض عليه وزج به في السجن ، ثم أفرج عنه بعد فترة قصيرة ولكن على شرط أن يغادر المدينة على الفور بحيث إذا عاد إليها ثانية أغرق في مياه نهر التير .

عاد بعد ذلك الراهب — وكان يدعى باوتلوميو براندانو — مرة ثانية إلى روما وصنع نفس الأمر الذي صنعه من قبل منادياً بانتقام إلهي عادل من المدينة ورجال الدين تاعثاً البابا كليمنت بأحق الصفات . وكان أن قبض ثانية على هذا الراهب وألقي به في نهر التير ولكنه لم يغرق فأمسك به وزج في السجن .

وقد حدث بعد ذلك بعشر سنوات أن أغار جماعة من الجنود المرتقة للإمبراطور شارل الخامس تحت قيادة شارل ده بربون على مدينة روما وقاموا بالكثير من أعمال السلب والنهب والتقتيل . وكان أن اضطر البابا كليمنت إلى عقد

معاهدة تسليم مخزية مع الإمبراطور شارل . وأطلق جنوده سراح الراهب براندانو بعد أن ظل في سجنه سنوات عدة لى فيها الكثير من أنواع التعذيب والإرهاق نتيجة لهذه النبوءة التى قال بها، ولعل البابا كليمنت نفسه قد جال في خاطره ذكرى هذا الراهب عند ما وقعت الواقعة وشاهد مدينة روما نهباً مستساغاً لهذه الطغمة من الجنود المرتزقة .

كانت هناك نبوءات كثيرة مثل هذه تدور على الألسن أكثر من ألف عام وكلها تدور حول مصير روما وأهلها لذلك كان نهب مدينة روما على يد شارل ده بربون أمراً متوقفاً .

والواقع أن هذه التنبؤات التى صدرت ضد روما إنما كانت موجهة إليها على اعتبار أنها ترمز إلى الكنيسة والبابوية ، ولم تكن هذه التنبؤات تصدر عن عرافين محترفين فحسب بل كانت تصدر أيضاً عن رجال من أهل الكنيسة تنبأوا بما سوف يحل بالكنيسة من السخط والهوان للذنوب والخطايا التى وقع فيها رجالها كالمناجرة بالرتب الكهنوتية والانغماس فى الملاذ والترف وهى الخطايا التى وقع فيها كثير من البابوات ورجال الدين . ومن المعروف أن روجر باكون (١٢٦٧) الراهب الإنجليزى والعالم الشهير وكذلك داني كان كل منهما يعتقد

في أن تغيراً مفاجئاً سوف يطرأ على الكنيسة يؤدي بها إلى حالة أفضل وأحسن . وقد تنبأ باكون بأن كاهناً ورعاً سوف يقوم بهذا التغيير .

ويغلب على الظن أن معظم العرافين والمتنبئين الذين قالوا بهذه التنبؤات المتصلة بالكنيسة كانوا متأثرين بنبوءات عراف شهير ظهر في العصور الوسطى وكان له أثر كبير على غيره من المتنبئين ذلك هو العراف جوشم . Joachim

لقد توقف الملك ريتشارد قلب الأسد إبان حملة له على الأراضي المقدسة لمحاربة صلاح الدين الأيوبي ، في مدينة فيور من أعمال مقاطعة كلايريا بإيطاليا لاستشارة رجل كان يعد في ذلك الوقت أعظم منبيء ظهر منذ عهد الرسل . لقد كان هذا الرجل على جانب كبير من الورع والتقوى وصفاء النفس وكانت شهرته كمنبيء قد عمّت جميع العالم المسيحي . هذا الرجل هو جوشم وهو راهب بندكتيني انفصل عن طائفته وأنشأ له ديراً خاصاً به في فيور . وعلى الرغم من أن هذا الراهب قد تنبأ بأشياء كثيرة في غير صالح البابوية إلا أن الباباوات مع ذلك قد بسطوا عليه حمايتهم وجعلوه تحت رعايتهم . وكان هذا الراهب يقول إنه لم يمنح هبة الكشف عن الغيب إنما

منح هبة الفهم والإدراك . وهو يذكر في إحدى كتبه كيف أنه تاه في ميدان التأمل والتفكير في ليلة عيد الفصح فشعر أن شعاعاً من الضوء اللامع قد نفذ إلى أعماق نفسه وأن إلهاماً إلهياً قد حل به فجعل كل أسرار الكتب المقدسة واضحة أمامه كما كانت واضحة أمام الرسل والأنبياء .

لقد تنبأ جوشم هذا بالمسيح الدجال وأخبر ريتشارد قلب الأسد أن هذا المسيح الدجال سوف يعتلي سريعا الكرسي البابوي .

وبعد وفاة جوشم هذا أخذت الطبقة المثقفة من الناس تستمع إلى الدروس التي تفسر فيها نبوءات هذا الراهب الكبير إذ كانت هذه النبوءات تدرس كما يدرس الكتاب المقدس . وقد ذكر جوشم في كتبه أن العصر الكبير الأول من تاريخ العالم هو عصر الأب أي ما قبل العهد المسيحي أما العصر الثاني فهو عصر الابن ويمتد حتى عام ١٢٦٠ للميلاد أما العصر الثالث فهو عصر الطيف المقدس ويبدأ من عام ١٦٢٠ ويتضمن تغييرا وتطهيرا شاملا للكنيسة . وكان يرى أن الكنيسة قد انغمست في الشهوات وغدت وكرا للصوم ومن ثم احتقر الناس رجال الدين .

وكانت هناك غير ذلك نبوءات كثيرة ضد الكنيسة يتداولها الناس في كل مكان وقد أفصح عنها كل من دانتي ومكيافلي في كتاباتهما . ولعل أبرز شخصية ظهرت بعد ذلك في ميدان التنبؤ بالغيب هي شخصية ساقونارولا الذي تنبأ بأشياء كثيرة تحققت كلها تقريباً . مثال ذلك أنه تنبأ بطرد أسرة ده مديسي الشهيرة من فلورنسه وقد تحقق ذلك . وتنبأ بالغزو الفرنسي لإيطاليا في عهد شارل الثامن ملك فرنسا وقد تحقق ذلك ، كما تنبأ أيضاً بدمار روما تدميراً تاماً بالنيران بسبب فسوق أهلها وهذا أمر لم يتحقق اللهم إلا إذا اعتبرنا نهب روما على يد ده بوربون بعد موت ساقونا رولا بتسع وعشرين سنة تحقيقاً لهذه النبوءة .

لقد كان هذا الراهب اللومينيكي العجيب يرى الرؤى الصادقة ويسمع الهواتف العلوية ، فقد شاهد في مساء الجمعة الحزينة من عام ١٤٩٢ رؤيا هي عبارة عن صليبين هائلين ورأى سيفاً يتللى من السماء فوق إيطاليا وغير ذلك من الرؤى . وقد ذاع صيت هذا الراهب حتى أصبح المتسلط على أهل فلورنسه .

غير أن أعداءه وحاسديه قد أخذوا يتزايدون فكان أن

سجن وعذب واستخلص منه عن طريق التعذيب اعترافاً ينكر فيه ادعاءه أن له قوى تكشف عن الغيب فحوكم محاكمة صورية حكم عليه بعدها بالموت حرقاً . فى الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٤٩٨ وبحضور مندوبين عن البابا اسكندر السادس الذى نعته ساقونارولا بالشيطان جرد ساقونارولا من رداءه الكهنوتى وتلى عليه الحكم بالإعدام هو واثني من أتباعه المقربين إليه . وقد شق الثلاثة وأحرقت جثثهم وهى معلقة فى المشانق . وبعد ساقونارولا اليوم عند الكثيرين من القديسين والشهداء والمتنبئين الصادقين فى نبوءاتهم .

وقد يكون ميشيل نستراداموس هو أعظم المتنبئين الذين ظهوروا فى القارة الأوروبية Michel Nostradamus وقد احتل هذا المتنبئ مكانة مرموقة لم يرق إليها أحد غيره من مشاهير القرن السادس عشر عصر النهضة الزاهر ، وكانت له قدرة عجيبة على التنبؤ بالغيب ، فما أن ذاع صيته فى هذا الميدان حتى أخذت أوربا كلها تتحدث عنه وأرسل إليه الملوك والأمراء يدعونه ليقرا لهم ما ينخبئه لهم المستقبل من أحداث ، وحجج العظماء إلى بلدته سالون Salon من مقاطعة بروفانس بفرنسا ليكشف لهم ما خفى عنهم من أمور وأحداث .

لقد درس نستراداموس هذا الطب وكانت له مقدرة فائقة في معالجة المرضى الذين كانوا يقعون صرعى للطواعين التي كانت تعتاج أوروبا من حين لآخر إبان القرن السادس عشر حتى كثر حساده من الأطباء فأذاعوا عنه أنه يشتغل بالسحر والعلوم الخفية . والواقع أن نستراداموس كان يقضى معظم أيامه في الطبقة العليا من منزله وسط مجلدات ضخمة مكتوبة بلغات متعددة وحوله أدوات كثيرة مما يستخدمها المنجمون والسحرة كالأسطرلاب والمرايا السحرية . ويذكر نستراداموس نفسه أنه قد أحرق بعض الكتب المصرية القديمة بعد أن حفظ محتوياتها عن ظهر قلب وقد ورث هذه الكتب عن أجداده وكانت تحوى كثيراً من علوم المصريين والمجوس .

وقد زار نستراداموس كثيراً من البلاد الأوربية واجتمع بمشاهير العلماء والمشتغلين بالكيمياء والتنجم وتباحث ولما هم في شتى الموضوعات العلمية .

وحدث أثناء زيارته لمدن إيطاليا أن شاهد في إحدى القرى الصغيرة راهباً فرنسيسكياً يدعى فيلكس بيرتى Felix Peretti فما أن رآه حتى ركع نستراداموس أمام هذا الراهب بكل خشوع واحترام ولا سأل في ذلك الرهبان الآخرون أجابهم : إني أركع

أمام قدامته . غير أن الرهبان لم يهتموا بهذه النبوءة لأن ييرقى هذا لم يكن يمتاز عنهم بشيء البتة ولكن هذا الراهب القروي قد أخذ يرقى المناصب الكهنوتية الواحد بعد الآخر حتى ولي العرش البابوي عام ١٥٨٥ ولقب بـ « سكوتوس السادس »

وكان نستراداموس هذا ينشر تنبؤاته في شكل رباعيات شعرية وقد نشرت لأول مرة في عام ١٥٥٥ وتضمنت كثيراً من النبوءات التي تحققت على مر الأيام منها مقتل شارل الأول ملك إنجلترا وثورة أوليفر كرومويل ومقتل لويس السادس عشر ملك فرنسا والثورة الفرنسية ومجيء نابليون بونابارت وغير ذلك من الأحداث العالمية الشهيرة .

وقد أصيب نستراداموس في أواخر أيامه بمرض الاستسقاء وثقل عليه المرض فاعتكف في بيته لا يرى أحداً من الناس إلا تلميذه الوفي شافني Chavigny وإثنين أو ثلاثة من أصدقائه المقربين . وقد أوصى أن يدفن واقعاً في كنيسة الفرنسيسكان حتى لا يبطأ أحد على عظامه .

وفي مساء اليوم الأول من شهر يولييه سنة ١٥٦٦ تركه تلميذه شافني بعد أن ألقى عليه تحية المساء والتعبارة المألوفة : « إلى الغد يا أستاذ » ولكن نستراداموس هز رأسه بحزن وتغم

قائلا : في الغد عند شروق الشمس سوف لا أكون موجوداً .
وفي الصباح كان نستراداموس جثة هامدة فوق مقعده .
ولقد بكاه أهل بلده طويلاً وكانوا يعتقدون أن نستراداموس
لم يموت ولكنه اعتزل الحياة ليتابع دراساته ، ونقش على الحائط
الذي يضم رقاته هذه الجملة : « لا تعكر سلام الموتى » ثم
أضافت إليها زوجه : « هنا ترقد عظام ميشيل نستراداموس
الشهير الوحيد في رأي جميع البشر الذي يسجل بقلمه المقدس
أحداث العالم المستقبل وفقاً لتأثير الكواكب » .
ولقد توفي نستراداموس بالغاً من العمر اثنين وستين عاماً
وسنة شهور وسبعة عشر يوماً .

الفصل السادس الأحلام والتنبؤ بالغيب

لقد كثر الكلام عن الأحلام وعلاقتها بالتنبؤ بالغيب وانبرى
نقر من العلماء المبرزين للدراسة هذه الظاهرة العجيبة ووضعوا
فيها الكتب والمطولات وضمنوها كثيراً من الأحلام التي تحققت
عن آخرها .

ولعل أشهر من قام بهذه الدراسة هو الفلكي الفرنسي
الشهير « كامبل فلاماريون » في كتابه « لغز الحياة النفسية »
The Riddle of Soul Life إذ كان من المؤمنين بأن هناك رؤى
صادقة تتحقق عن آخرها في العالم المحسوس . ومن الأمثلة التي
أوردها في كتابه المذكور تلك الحادثة التي ذكرها على لسان
شاهدة معتمدة موثوق بكلامها إذ قالت :

« حوالي أواخر شهر نوفمبر من عام ١٨٧١ وأعتقد أن
ذلك كان في يوم الأربعاء الموافق الثاني والعشرين من نوفمبر ،
كنت في ضيافة أسرة المستر دافيدسن في نيواورليانز ، وقد

حضر لزيارته نقر من الأصدقاء من بينهم مدام ثلتون وقد قصت على الحاضرين عدة أحلام رأتها في منامها وقالت أن هذه الأحلام قد تحققت عن آخرها ، ولكن الحاضرين لم يكونوا في مركز يسمح لهم بالتحقق من صدق ما ذكرته هذه السيدة . وبعد أن أفاضت في ذكر أحلامها التي تحققت سألتها المضيف :

إني أسألك يا مدام ثلتون هل رأيت في منامك حلماً يتصل بي ؟

فجالت : « إنني رأيت البارحة فقط يا مستر دافيد من حلماً يتصل بك » .

وقد سألتها الحاضرون بلهفة أن تقص عليهم ما رآته في حلمها .

فجالت : « لقد رأيت في منامى أنني سوف أعود لزيارتكم لدعوة عاجلة وذلك بعد ستة أسابيع من اليوم .

فقال المضيف : « إن هذا الحلم من السهل تحقيقه » ثم مال على أحد الحاضرين وقال : « أرجو أن تذكر لنا متى سيكون ذلك اليوم الموعود » ، وعند ذلك أخرج أحد الحاضرين

مفكرته وقال إنه سيكون في يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير
عام ١٨٧٢ .

« حسناً سوف نختبر جميعاً صدق أحلام هذه السيدة .
وعند ذلك تابعت مدام ثلثون الحديث قائلة : « مهلاً أيها
السادة . إننى رأيت في منامى أيضاً أننى عند ما دخلت البيت
وجدته خالياً وبحشت من المستر دافيدسن ولكنى لم أجده وأخيراً
رأيت وسط قاعة الاستقبال تابوتاً معدنياً كبيراً . وكان غطاء
التابوت محكماً ولم أر شيئاً آخر إلى جانب ذلك ولكنى أدركت
أنك مسجى داخل هذا التابوت » .

وعند ذلك انفجر المضيف ضاحكاً وشاركه في ضحكته
جميع الحاضرين ثم وجه دافيدسن الكلام إلى زوجه منهكماً :
« إنى أرجو منك تابوتاً غير معدنى لأننى لا أحب التواييت
المعدنية ، إنى أريد تابوتاً بسيطاً من الخشب » .

وقد وعدته زوجه بذلك ضاحكة وقالت إنها سوف تلبى
رغبته في حالة ما إذا كانت ستخلفه .

ثم تابعت مدام ثلثون الحديث قائلة : « إننى لم أشاهد سوى
سيدة واحدة في قاعة الاستقبال فوقفت إلى جوارها . وكان
منقوشاً على غطاء التابوت ست ورود فضية . »

وقد ضحك الجميع أيضاً من هذه الحلية العجيبة ولكن مدام ثلتون ظلت على هدوئها وقالت : « ولقد عجبت أنا أيضاً عند ما شاهدت ذلك في الحلم » .

ولقد تفرقنا بعد ذلك بعد أن تواعدنا على أن نلتقي ثانية يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير كما جاء في حديث هذه السيدة . وحدث في اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٨٧٢ حادث محزن للمستر دافيدسن إذ دهمته قاطرة فأزهقت روحه .

وفي صباح اليوم التالي وضع جثمانه في تابوت . وقد رغبت أسرته في أن لا يرى أحد وجهه المشوه نتيجة لهذا الحادث . وقد آليت على نفسي أن أمكث إلى جوار هذا التابوت وظللت في مكاني حتى بعد أن أحكم غلق التابوت .

وقد حضرت مدام ثلتون إلى المنزل في اليوم الموعد فوجدت التابوت في قاعة الاستقبال وليس إلى جانبيه سوى . فجاءت ووقفت إلى جانبي وظللنا نحن الاثنين وقوفاً إلى جانب التابوت دون أن ننظر واحدة منا إلى الأخرى . وفجأة لمست مدام ثلتون يدي وأشارت إلى ست وردات فضية ترين غطاء التابوت المعدني فنظرت إليها متسائلة فتمتمت قائلة : « ألا تذكرى الوردات الست الفضية التي رأيتها في منامي بوضوح ؟ » وبعد ذلك بأسبوعين قالت لي أرملة المستر دافيدسن :

« ألا تذكرى ذلك الحلم العجيب إن كل شيء قد تحقق كما رأت صديقتنا فى منامها حتى التابوت فأننى لم أنس فى حزنى وصية زوجى التى أوصانى بها . ولقد سألت الحائزى عن السبب الذى من أجله أحضر هذا التابوت المعلق على الرغم من طلبى إعداد تابوت خشبي فعلمت أنه لم يكن من الممكن العثور على تابوت خشبي بالمقاس المطلوب فلم يجد سوى هذا التابوت المعلق فاضطر تحت ضغط الظروف إلى استخدامه . » ولقد قام المستر فلاماريون بالتحقق من صدق هذه الرواية بنفسه وكان لا يزال من شهودها الثلاثة عشر تسعة أشخاص على قيد الوجود فأكلوا جميعاً ما سمعوه من مدام ثلتون وما كان من تحقق حلمها عن آخره .

وهناك حادثة أخرى ذكرها هنريش كارل بروش Heinrich Karl Brugsch أحد علماء الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر فى مذكراته وهى تتصل بحلم رآه الحديو إسماعيل عام ١٨٧٥ حيث قال :

« لقد كنت فى طريقى إلى جوتنجن لتوديع أسرنى التى كانت تعيش هناك على أن أبجر بعد ذلك مباشرة من ميناء بريمن على ظهر إحدى السفن . وعندما كنت فى طريقى إلى محطة السكة الحديد لأركب القطار الناهب إلى بريمن تلقيت

برقية ففتحها على الفور لأرى مضمونها قبل أن أركب القطار .
وقد كانت هذه البرقية قصيرة وحاسمة :

« إن الخديو يرجوك العودة إلى القاهرة على الفور » .

فأخذت أول قطار ذاهب إلى تريستا لأركب أول باخرة
ذاهبة إلى مصر . ولما كنت لم أقرأ أية صحيفة من الصحف منذ
أن غادرت جوتنجن فقد عجبت أشد العجب عند ما أخبرني
ربان السفينة التي ركبها إلى مصر أن آخر سفينة غادرت بريمن
وهي التي كنت عازماً على ركوبها لو كنت قد سافرت إلى بريمن
قد حدث بها انفجار هائل قتل وجرح الكثيرين من ركابها .
فشكرت الله على أن دعوتني إلى الذهاب إلى مصر قد أنجنتني
من شر كنت معرضاً له من جراء هذا الانفجار .

ولما وصلت إلى القاهرة ذهبت على التو لمقابلة الخديو
إسماعيل حسب أوامره وكنت متوقفاً أن أتلقى منه بعض التوجيهات
الخاصة التي كان يجب أن يوجهها إلى نفسه ولكنني لم أسمع
منه إلا أنه سعيد أن يراني سليماً معافياً وأنه ليس لديه ما يقوله
أكثر من ذلك .

لقد رأى الخديو أن يستدعيني عن طريق هذه البرقية
وذلك بسبب حلم رآه ذات ليلة جعله يطلبني على جناح السرعة

والأجل حل بي شر يتربص بي .

والواقع أن هناك كثيرين من الناس يرون الرؤى فتحقق كما رؤوها في منامهم الأمر الذي دعى الكثير من الفلاسفة والمفكرين إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة والإفاضة في تفسيرها. ولم يكن حظ فلاسفة المسلمين من هذه المسألة يقليل بل إنهم أفاضوا الكلام في الرؤيا الصادقة وجعلوا هناك صلة قوية بين الرؤيا الصادقة والتنبؤ بالغيب استناداً على القول بأن الله يطلع عباده على غيبه سواء أكانوا في يقظة أم في منام : وهم يذهبون إلى أن الحلم إذا تحقق في الواقع كان هذا الحلم عبارة عن رؤيا صادقة ، أما إذا لم يتحقق فهو عبارة عن أضغاث أحلام ووسوسة شيطان لا تقبل تأويلاً ولا تستحق اهتماماً وهذا هو ما عليه أكثر المفكرين المسلمين .

وقد صنف الفلاسفة والمتكلمون الرؤيا على أصناف فقالوا إن بعضها ما يكون من وحى الله والبعض الآخر من إلهام الملائكة كما أن الرموز منها الذي يعوزه التعبير يكون من الملك أو من الأرواح فيما يقول البعض .

وقد جاء في الصحيحين عن النبي أنه قال :

« الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا

ما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام .

وقد عزي رجال الشرع الرؤيا الصادقة إلى الله القادر على كل شيء فهو يخلق في قلب النائم أو في حواسه الأشياء ، كما يخلقها في اليقظة وهو سبحانه يفعل ما يشاء فلا يمنعه من ذلك نوم ولا غيره وربما يقع ذلك في اليقظة كما يترأى في المنام . وذهب آخرون إلى أن الرؤيا الصادقة تقع للمرء وهو نائم ذاهل العقل والحس معاً ، إلا أن النائم وإن ذهب عقله الذي به يتعقل ويفهم وحسه الذي به يدرك صور المحسوسات فإن نفسه تكون يقظة متنبهة تقوى على التعقل والفهم وتقوم مقام الحواس من سمع وبصر ولس ونحوه في نقل آثار الجزئيات . ذلك أن روح النائم تسرح في الدنيا وتمتد منبسطة خارج الجسد وإن لبث جزء منها على اتصال به فتدرك في النوم مكنونات الغيب المحجب .

وقيل إنها ترحل عن الجسد إلى عوالم الغيب فإن تيقظ النائم فجأة قبل أن تعود من رحلتها أدركه الجنون . وقيل بل تصعد الأرواح إلى السماء السابعة حتى تقف بين يدي الله ويأذن لها في السجود . فإذا سجدت بشر الطاهر منها بالغيب فيراه النائم بروحه ويتفهمه بقلبه .

أما الصوفية فعندهم أن النفس من عالم المجردات والمعقولات
 فهي تستطيع أن تترك المدركات التي من جنسها إذا لم يشغلها
 شاغل من علائق البدن فإذا قويت بالفضائل الروحانية وضعف
 سلطان القوى البدنية اتصلت النفس بأبيها المقدس وبالنفوس
 الفلكية وتلقت عنها المغيبات كما يقع لها هذا في يقظتها .
 وفي الحديث النبوي : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ولكن
 لا يشعرون» .

وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم ولكن الناس
 يحسبون وهماء أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف
 خلالها شيئاً من عالم الغيب وما يبصره بين النوم واليقظة أولى
 بالمعرفة مما يترك عن طريق الحواس . واللوح المحفوظ مرآة
 نقش عليها المقادير بغير حروف ولو ظهرت تجاهها مرآة
 أخرى لا تكشف فيها صور الأولى إلا إذا قام بينهما حجاب .
 وليست المرآة الثانية إلا القلب والحجاب هو الشهوات والحواس .
 ويتجلى هذا في اليقظة أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويذول وبذلك
 تظهر في مرآة القلب صور اللوح المحفوظ وتنكشف للنفس
 آفاق المجهول ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم
 حالاتها زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانته ولكن الرؤيا

لا تقع لكل نائم ولا تجيء في كل نوم إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة . فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار القاسية وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء .

ويختلف الصوفية في تقدير الرؤيا فهم يضعوها دون الولاية حيناً وفي مرتبتها أحياناً فهي عند بعضهم نوع من الكرامات التي تقع للأولياء . والنفس التي تقوى على إدراكها متى عظمت وترقت في مجال الروحانيات أضحت صاحبها ولياً وهكذا يدرك في اليقظة متى قوى الأمر عنده — ما يدركه النائم في نومه ولئن كان هذا نادراً إلا أنه يقع لأهل الطريق ولا يشمل الناس جميعاً فإنهم يعجزون عن احتمال ملك الإلهام الذي يهبط على الأولياء أيقاظاً فيهبط على سائر البشر نياماً وإن جرت العادة فيما يرى البعض أن يسمى وحى الإلهام رؤيا إن وقع أثناء النوم وتخيلاً إن جاء إبان اليقظة .

ولعل ما ذكره ابن خلدون في هذا المقام يعد نموذجاً لهذا النوع من التفكير فقد ذكر في مقدمته :

« للعقل نطاق يحسن التفكير في مجاله ، إنه يدرك العلم الذي يستند إلى المشاهدة ، ويعتمد على التفكير النظري ،

هذه هي مدارك العلماء فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه
 ضل سبيلا . ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من
 الإدراك فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر في الأنبياء ويتبأ للأولياء
 ومع الناس نموذج منه يتبدى فيها يقع لهم من صادق الأحلام
 وهم نيام . واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوى غير عسير
 لأن في النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية
 إلى الملكية لتصير ملكاً بالفعل في لحظة من اللحظات
 وعندئذ تتجه إلى الملأ الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتساباً .
 وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون
 بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحاني لاتصالهم بالمدارك الحسية
 الخيالية التي تؤدي إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية
 مما ينهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها فإذا ترقى النفس
 تجاوزت هذا المجال واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل
 الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى إدراك الحس فيتسع
 نطاق إدراكها بالفطرة حتى يتجاوز الأوليات التي يقف عندها
 الإدراك البشري الأول إلى فضاء المشاهدات الباطنية وتلك هي
 مدارك الأولياء أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ويظفر
 بها أهل السعادة في البرزخ بعد مماتهم ، وقد ترقى النفس
 المقطورة على الانسلاخ من البشرية - جسمانياتها وروحانياتها -

إلى الملائكة من الأفق الأعلى لتصير في لحظة من اللحظات ملكاً بالفعل ، فتشهد أهل الملأ الأعلى في أفقهم وتستمع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى في تلك اللحظة وتلك هي نفوس الأنبياء في حال الوحي التى فطروا عليها ولم يظفروا بها صناعة واكتساباً .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية وتكون عندئذ أقل في الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن أو غيره . وهذا الاستعداد السالف يقوم في النفس ما دامت في البدن وهو على صنفين . صنف ينهياً للأولياء وآخر عام في البشر جميعاً وهو الرؤيا الصادقة . أما الاستعداد الذى ينهياً للأنبياء فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة وهى أعلى الروحانيات . »

ونجد مثل ذلك عند الغزالي فهو يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة وبينها وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم يقوم فيها إلهام الأولياء الذى يعتبر ضعيفاً بالإضافة إلى الوحي النبوى قوياً بالقياس إلى وحي الرؤيا .

ويذهب الفلاسفة إلى أن الحواس تنقل للنفس صور

المحسوسات فتشغل النفس بالتفكير فيها إبان البقطة ، فإذا وقع النوم تعطلت الحواس عن تأدية وظيفتها فتفرغ النفس من هذا التفكير وتنصرف إلى ما وراء الحس من جواهر روحانية شريفة عقلية وهى اللوح المحفوظ عند رجال الشرع - وفيها تنقش صور الموجودات كلها ، فإذا اتصلت النفس انطبعت فيها بما تحمل هذه الجواهر من مكنونات الغيب ولا سيما ما كان يعنى النفس منها .

وقد تصدق الصورة الجزئية التى تقع للنفس من غير حاجة إلى تعبير ، وربما بدلت الخيلة بها مثلاً يعوزه التعبير ليتكشف عن حقيقة معناه . وهم يقولون بأن من عناية الله بالإنسان أن يقع الإنذار فى الرؤيا إذ المقصود به أن يستعد المرء للملاقاة المستقبل ويتنبأ للفع شره ، هكذا أشار يوسف على ملك مصر بأن يستعد للسنين السبع المجدية بعد أن رأى الملك فى منامه سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف مهازيل وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

على أنه لا يبعد أن يقع الإنذار عن الماضى والحاضر متى كان مجهولاً لنا وهو أكثر ما يكون فى الأمور المستقبلية التى يختص إدراكها بالقوى الفكرية الجزئية التى تفيد فى

معرفة الضار والنافع من مقبل الأمور .

والخلاصة أن مفكرى الإسلام قد انتهوا إلى أن للنبيام القدرة على الاتصال بالعقل الفعال متى قويت الخيلة عندهم فإن أفرطت الخيلة فى قوتها تيسر لهم هذا الاتصال إبان اليقظة وكان التنبؤ ويقع هذا للأنبياء والواصلين من الأولياء .

ومهما يكن من الأمر فهناك كثير من الناس ممن يوثق فى صدق رواياتهم قد رأوا فى منامهم رؤى كثيرة تحققت فى العالم المحسوس . وقد قيل إن أم الإمام الشافعى قد رأت فى منامها بعد أن حملت به أن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق فى كل بلد قطعة . فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذاً فى مصر ينشر علمه فى أكثر البلاد طويلاً وعرضاً فكان الأمر كما قالوا .

وذكروا أيضاً أن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار فى حجرها فعبر أبوها رؤياها بموته وموت الرسول والفاروق عمر بن الخطاب ودفنهم فى حجرها جميعاً . وقد صح فىها بعد هذا التعبير .

وقد فآخر الشعرائى — وهو من المتصوفة المشهورين — بوقوع كثير من الرؤى له . من ذلك أنه كان وصياً على أبناء

أخيه فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى في تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً في خلوته ليخرجوا منه فأدرك أنه أخطأ في أمره السالف وعدل عنه .

وكان إذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته وساورته الشكوك فيما سمع رأى في ليله من اغتيب يلبس اليباض فيدرك كذب المعتاب .

وقد روى الرحالة لين Lane في كتابه «عادات وشماثل المصريين

المحدثين» The Manners and Customs of modern Egyptians

أن الإمام الشيخ المهدي قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عند العامة وهو الشيخ أحمد البهي - كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير فسمعه يورخ حياة الحسين ويعقب قائلاً إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسيني المعروف في القاهرة وكان البهي يعتقد غير ذلك فألمه ما سمع ولكنه لم يعترض على الشيخ احتراماً لشهرته وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس إنطلق إلى بيته وأقام الصلاة ودعا ربه - وهو جاث على ركبتيه - أن يرهبه رسول الله في رؤيا صادقة يعرف منها حقيقة هذه المسألة ، فلما استسلم للنوم رأى أنه في الطريق إلى زيارة المشهد الحسيني فلما دنا من قبته رأى النور يشع منها فدخل

المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه — بعد تبادل التحية — أن يقرئ رسول الله السلام : فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالسا على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه وآخر عن يساره فجهر بقوله . السلام عليك يا رسول الله وكررها ثلاث مرات والدمع يجرى على خديه ، وسمع الرسول يقول له : أدن مني فقادته الشريف وأجلسه في حضنته ، فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يا بني . فقال له : يا رسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا ؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلا الرجل غبطة وطمأنينة واستأذن الرسول في أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير في درسه . فلما سمع الرسول قصته : طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتر من فرط الرضا والغبطة فاستيقظ من نومه وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه الأمير . فلما بلغ الباب دقه بعنف أفرع سكان البيت . ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته فلما علم الشيخ بصاحب الصوت أدهشه مجيئه في هذا الوقت المبكر وظن سوءاً . وأخذ البيه من فرط التأثر يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام أو يقبل يده كما جرت عادته معه .

وقص رؤياه منبثاً شيخه بأن الشريف الذي كان بالباب هو الإمام علي ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر . والواقف عن يساره عمر ، وأتهم كانوا في زيارة الحسين . ولا دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إني أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهي شاهدة على ذلك لأن رؤيا الرسول حق » .

هذا ولم يكن الاعتقاد في الرؤى وفقاً على العرب أو المسلمين بل شاركهم في هذا الاعتقاد كثير من الأمم القديمة . فقد كان الإغريق يرون أن الأحلام هي من فعل الإله زيوس كبير الآلهة . وقد ذكر هذا هوميروس في إلياذته أكثر من مرة ، كما انتشر هذا الاعتقاد في جميع بلاد الإغريق .

وكان للمصريين القدماء إله للأحلام هو « بس » Bess وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التي يضع المصريون عليها رؤوسهم . وكان للبابليين أيضاً إله الأحلام هو الإله « ماخر » وكذلك كان لمعظم الشعوب القديمة آلهة خاصة للأحلام على اعتبار أن هذه الآلهة هي الباعثة على ما يراه النائم من أحلام .

وكان الحكام في إسبرطة ينامون عادة في معبد خاص

اعتقاداً منهم أنهم يرون الرؤى الصادقة إذا ناموا في ذلك المعبد . وكان لهذه الرؤى أثرها المباشر في تسير الأمور وتوجيه سياسة إسبرطة . وقد بلغ من اعتقاد أهل أثينا في الرؤى أن محكمتهم العليا كانت تأخذ بما تقرر الرؤيا من إدانة المتهمين أو تبرئتهم كذلك كان أهل روما يستجيبون لما تشير به الرؤى . وهكذا كانت الأحلام من الأمور التي شغلت بال الناس في مختلف الشعوب منذ القدم كما كان التسليم بالرؤيا الصادقة جزءاً من عقيدة أكثر المعلمين والجهال على حد سواء حتى الوقت الحاضر .

وما يتصل بهذا الموضوع إدراك المجانين والمصروعين للغيب وقد قالوا في تعليل ذلك أن نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم في أغلب الأحوال ولضعف الروح الحيواني فيها وبذلك تكون غير مستغرقة في الحواس ولا منصرفة إلى التفكير في نقصها ولذلك فالمجنون يكون كالمبهوت الغافل عما يرى ويسمع ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شيء من الغيب فيجربى على لسانه وهو فيما يشبه الذهول .

ومن هؤلاء أيضاً المرضى والمشرفين على الموت فقد يذكر المريض أنه يرى ويسمع أشياء ولا شيء من ذلك في واقع الحس وقد ردوا هذا إلى فعل الخيلة على اعتبار أنها مصدر الصور

الباطنة . وذكر الأطباء أن بعض المرضى يخبر بالغيب وبالأمر قبل وقوعها فيصدق قوله .

ويذكرون أن القتلى عند ما يشرفون على الموت يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب . ويقال إن بعض الملوك الظلمة قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلامهم إبان قتلهم على ما نخبى عليهم وقد أنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة .

والمعروف على سبيل التحقيق أن الموت متى نزل بالبدن ذهب الحس وزال حجابہ واطلعت النفس على ذاتها وعالمها وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب . وليس عجيباً أن يؤدي الموت إلى كشف الغيب فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بعينه الظاهرة بل يرى بالعين التي خلقت في كل قلب وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات . وبين القلب واللوح المحفوظ الذي نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة يقوم حجاب قد ينكشف في المنام أو اليقظة ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب إنما يكون بالموت كما يقول الغزالي في كتابه كيمياء السعادة .

الفصل السابع

موقف الفلاسفة من التنبؤ بالغيب

لقد سلم معظم الفلاسفة الأقدمين بالتنبؤ بالغيب وإن تفاوت تسليمهم قوة وضعفاً مع استثناء الفيلسوف اليوناني أكسانوفان فهو الوحيد الذى أنكر التكهن بحذافيره مع تسليمه بوجود الآلهة . فقد كان الفيلسوف سقراط يعتقد بأنه يعمل ويتكلم تحت تأثير إلهام إلهي . وكان على يقين من أن إلهاً خبيراً يعين الناس حين يكونوا في شك من أمر المستقبل ، فالإنسان لا يستطيع بعقله وحده أن يعرف على وجه الدقة الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه . لذلك كان سقراط يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ويحض أصدقاءه على استشارة الوحي ولا سيما وحي دلفي . ومن هنا نرى أن سقراط كان ينشيع للتكهن أو يرى بتعبير أدق أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة في الحالات الجدية الخطيرة أما في الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العلل التى تبرره فإن سقراط يرى أن استشارة الوحي في مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

أما أفلاطون فقد كان فن التكهّن عنده أجمل الفنون جميعاً وقد وردت في كتبه كثير من الفقرات التي تقرر اعتقاده في التكهّن بالغيب . وكان من رأى أفلاطون أن القوانين الجميلة المقررة لا ينبغي الإقدام على تغييرها . فإن كان من الضروري إجراء تغيير فيها وجب ألا يقدم المشرع على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب وكل أنواع الوحى حتى إذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه . وقد ظفر التكهّن بالغيب بمكان مرموق في الدولة أيام أفلاطون وقد عرض لبيان هذا في كتبه النواميس والجمهوريّة والمائدة وطيباوس التي يعرض فيها نظرية التكهّن عن طريق الإلهام الإلهي مستخدماً لغة الصوفية في اشتراط هدوء النفس التام وتعطل الفكر بالنوم وصقله بالمرض أو بحالة الجذب التي تعترى الإنسان .

أما الفيلسوف أرسطو فكان يعتبر التكهّن بالغيب الذي يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . إن فلسفة أرسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة وإن كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل إلى تخمينات وأن نبني آمالاً ، ومن

هنا كان في الإمكان قيام علم للأمل الممكن وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ المعلن الذي يقوم على أسباب ويستند إلى الاستقرار وحساب الاحتمالات . أما عن التنبؤ في الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه أنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتماد في صحته . أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب .

وكان فيثاغورس يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من أهل العياقة . ويدل موقف ديمقريطس إزاء التكهن على إسرافه في الاهتمام بالصفة الآلية في مذهبه فليس ثمة شيء عنده إلا الجوهر الفرد والحلاء وكل ما هو موجود وكل ما يقع ينبغي أن يفسر باتصال الجواهر الفردة . وهذه الثرات لا تخضع لغير القوانين الآلية . وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظاً في القدرة وأطول منه أجلاً تتألف من جواهر فردة إلا أنها جواهر لطيفة جداً تتحرك في الفضاء بسرعة خارقة . كانت تسمى في بعض الأحيان بالجن سواء أكانت خيرة أم شريرة . وكانت تلقى صوراً تراها أعين الناس وأصواتاً تصل إلى أذهانهم وبهذا يمكن تكشف المستقبل .

وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء

المحيطة بنا فإن الأحلام تحمل أنباء المستقبل . وفي بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يعترهم الجذب أن تنبأ لهم رؤى أو أصوات تفد عن كائنات أكل منها تكويناً . وإن كانت هذه الصور التي تبعث بها الجن قد يشوبها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات في فصل الحريف كثيرة الأخطاء .

أما الذي عليه رأى أكثر الفلاسفة المسلمين فهو أن الله وحده هو علام الغيوب ولكن ليس معنى استشاره بالغيب حرمان البشر كافة من القدرة على معرفة الغيب ؛ بل إن الله يهب لمن يشاء من عباده معرفة الغيب أو هي فطرة يجعلها في صفوة المؤمنين ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح . قاله تعالى وإن استأثر بعلم الغيب إلا أنه يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه فيكون إدراكهم من خصائص النبوة . وقد يصل بعض المؤمنين إلى مرتبة تدنو من مرتبة الأنبياء فينكشف عنهم الحجاب ويدركون شيئاً من علم الغيب . وهناك غير هؤلاء فئة ثالثة كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو حلول مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك فيدركون شيئاً من علم الغيب .

والسبب في هذه القدرة على إدراك الغيب تحرر النفس من
علائق البدن وانصراف المزاج عن موارد الحس فليس يمنع النفس
من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها في البدن والحواس
فإذا ما تجردت من هذه المحسوسات تطلعت إلى الذوات التي
فوقها في الملاء الأعلى لما بين أفاقها وأفتقهم من وجوه الاتصال
فتقتبس النفس منها علماً ومعرفة وعلى هذا جاز وقوع العلم
بالغيب لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس في يقظة أو منام .

والقرآن الكريم قد حصر العلم بالغيب في الله وحده قال
تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » وكرر هذا
المعنى في أكثر من آية ولكن الله يطلع على غيبه من ينجبه
من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي
من رسله ما يشاء » . ويقول تعالى كذلك « عالم الغيب فلا يظهر
على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين
يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .

ويتضح من هذه الآيات أن الله وحده هو العالم بالغيب
وأنه يجتبي من رسله من يطلعه على الغيب . ولكن أهل السنة
يرون أيضاً أنه في الإمكان إطلاع غير الرسل على الغيب
إطلاعاً لا يفيد أكمل مراتب العلم أو قصر إطلاعهم على بعض

مبادئ الغيب وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين .

ولقد أفاض ابن خلدون في مقدمته الكلام عن المدرجات الغيبية ويعتبر كلامه أنموذجاً للتفكير الإسلامى فى هذه الناحية لذلك رأينا أن نختم هذا الكتاب بخلاصة ما ذكره ابن خلدون فى هذا الموضوع على النحو التالى .

« إننا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس . ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع . وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلتقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على

سبيل الكرامة معروفة . فالنفس الإنسانية ذات روحانية موجودة بالقوة بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر ملزم لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والخزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بوجود ملركاتها المحسوسة عليها ، وما تتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصورة مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالمهيول والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة . ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك التي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا غيرها وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد ، بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت

عليه أولاً من الإدراك الجسماني ، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية ، فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى لما بين ألقها وألقهم من الاتصال في الوجود ، وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربما رفعت تلك الصور الملمكة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ، ثم يراجع الحس ما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به . وهذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي .

ولبيان أصنافه نقول إن الناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالخصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناه ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها ، وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبلوه ملركة الذي يخبر به عنه . وربما

يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتدش فيه صور هي مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من ثنى أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما ذكره . أما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها من هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس . ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك . وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد . ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثل والإشارة . وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين .

أما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك ، وليس الاتصال — فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ، حينئذ فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة .

دارالمعارف للطباعة والنشر

شفيق نجيب مبرى وشركاه

المركز الرئيسى : ٥ شارع ماسيرو بالقاهرة

يسرنا أن نعلن إلى عملائها وأصدقائها الكرام وسائر القراء أنها قد عادت إلى القيام بتوزيع وبيع جميع مطبوعاتها بمعرفتها وذلك فى الجمهورية العربية المتحدة وفى سائر الأقطار .
وعليه يمكن الحصول على كافة المطبوعات مدرسية كانت أم ثقافية من كل الأماكن والجهات الآتية :

- ١ - المركز الرئيسى : ٥ شارع ماسيرو بالقاهرة تليفون ٨١٢١٦٨
- ٢ - قسم التوريدات : ٩ شارع كامل صدق بالقجالة ٤٩٨٦٦
- ٣ - من فروعها الآتية :

- فروعها بالقجالة : ٩ شارع كامل صدق بالقاهرة ٤٩٨٦٦
- » بشبرا : ١٠٥ شارع شبرا بالقاهرة
- » بالسيدة : ميدان السيدة زينب بالقاهرة
- » بالظاهر : شارع الجميل بالظاهر بالقاهرة
- » بالإسكندرية : ٢ ميدان التحرير بالإسكندرية



To: www.al-mostafa.com